العراق

صراخ في ليل طويل

دار النيل للطباعة والنشر

الطبعة الأولى: ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م

ISBN: 978-975-315-345-4

DAR AL-NILE

Kısıklı Mah. Meltem Sok. No: 5

34676 Üsküdar - İstanbul / Türkiye

Tel: +90 216 3186011 Faks: +90 216 3185220

مركز التوزيع / فرع القاهرة

العنوان: ٧ ش البرامكة - الحي السابع - مدينة نصر - القاهرة

تليفون وفاكس: ٢٠٢٢٢٦٣١٥٥١+

المحمول: ٢٠١٦٥٥٢٣٠٨٨+

جمهورية مصر العربية

www.daralnile.com

العراق

صراخ في ليلٍ طويل

سعاد الحسيني

دار النيل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

قراء هذه الصور القلمية ربما يحسبون أنهم بإزاء أحداث أسطورية عفا عليها الزمن، وربما لا يصدقون أن شيئا من هذا الذي يقرأونه يمكن أن يحدث في بلد اسمه "العراق" وفي زمن اسمه "القرن العشرون وبدايات القرن الحادي والعشرين"، ولكن ما عشناه وذقناه -نحن العراقيين- من مصائب وويلات ومآس على يد "صَدّام حسَين" -هُولاكُو العصر الحديث- هو أكثر بكثير مما سيطالعه القراء في هذا الكتيب المتواضع، لأنه لم يمكن بمستطاعي أن أسجّل كل ما شاهدتُه أو سمعتُه عما يجري في السجون والمعتقلات أو في البيوت والشوارع والمحلات من أهوال، وإلاّ احتجت إلى كثير من المجلدات، وما لا يُدْرَكُ كُلّهُ لايُتْرَك أقَلُّهُ.

فالذي بين دفتي هذا الكتيب إنما هو نماذج وأمثلة في غاية التواضع لما كان يتهامس به الناس في مجالسهم الخاصة، ومما يطفو على السطح وتعجز السلطات بكل جبروتها وقمعها عن إخفائه والتستر عليه. أما ما يحدث في أقبية "المخابرات" ودهاليز "الأمن العام"، وتحت أطباق الظلام، فهذا ما أعيذ القارئ الكريم من الاطلاع عليه، لأنه سيهز مشاعره حتى النخاع، وربما دار رأسه وغشيه الغثيان، ولعل هذا الكتيب المتواضع بصوره القلمية المثيرة يكون حافزا لكتّاب ومؤرخين يهمهم أن يؤرخوا لحقبة ظلامية هُولاكيّة هي أشدّ وأقسى ما مرّ على العراق في العصر الحديث.

صراخ الطفل

على صدرها تهدهده... تريد أن تسكته... تناغيه بصوت يقطر أسى...

- نمْ يا بني... نم، كفاك صراخا!... كادت تنشق مرارتك... لقد هززت جدران الليل بصراخك... نم يا طفلي العزيز... أعلم أنك جائع... ما عندي ما أسْقيك... جفّ ثدياي... ولم يعودا يدران غير المرارة والألم!..

على صدرها تهدهده... والطفل يزداد صراخا...

- ربّاه... ماذا أفعل في هذا الليل... إنه يشتد حلكة... في السماء نجوم تتلألأ صافية اللمعان... المدينة تغط في ظلام مخيف... لا رعشة ضوء... لا قبسة نور... الكهرباء مقطوعة... منذ عشرة أيام ونحن في هذا الظلام المرعب...!

تشعل شمعة... تنزل إلى فناء الدار تنادي بصوت خافت:

- أنت يا أختي... يا جارتي... يا أم خالد... طفلي كاد يموت صراخا، ويموت جوعا... هلاّ أخذته مني وألقمته ثديك... تعلمين يا أختي أن اللبن في ثديي جفّ منذ أن جاءوا بأبيه شهيدا... ولبن الرّضاعة نفد... ليس عندي منه قطرة واحدة... ما أفعل... من لي غيرك... ألقميه ثديك... افعلي هذا لله... والله يجزيك خير الجزاء...!

تأخذ الجارة الطفل... تضمه إلى صدرها وتلقمه ثديها...! فلا يلبث حتى يغط في نوم عميق...!

- هاكه... لقد نام...!

تأخذ الطفل وتضعه في السرير بينما عيناها تطفحان بالدموع...!

الشهيد

- لا تبك... انتظر... دقيقة واحدة وآتيك بالرضّاعة... لا تبك... ها أنا ذا جئت...

تلقمه الرضاعة... تنظر إليه بإشفاق وهو يرضع...

- كُتِبَ عليك أن تعيش يتيما...

تمسح دمعة جرتْ على خدها الشاحب...!

- أخذوا أباك من المعمل... ألبسوه "الخاكي"... ووضعوا على كتفه رشاشا... وفي سيارة عسكرية حشروه مع الكثيرين من أمثاله... وعلى الخطوط الأمامية من الجبهة قذفتهم السيارة كما تقذف الزبالة...! انتبِهوا جيدا هذا مكانكم... من يتأخر عنه تتلقفه "فرق الموت"...! تموتون على الساتر ولا تتراجعون... هذه أوامر "الريّس"... أفَهِمْتم...؟!

وبعد يومين جاءوا به مسجّى في تابوت ملفوف بالعلَم...

- خُذي... زوجك شهيد... لا تحزني... إنه فداء للوطن...!

الوطن... الوطن...! كم من جريمة ترتكب باسمك يا وطن... أينما توجهت في هذا الوطن أشمّ رائحة الموت... في محلتنا وعلى مقربة من داري جاؤوا بابن فطومة أم اللبن[1]... جاءوا به في تابوت كتب عليه

(١) ابن فطومة أم اللبن: بائعة اللبن

"متخاذل" بخط عريض... ألقوه على عتبة الدار باحتقار... ثم مضوا لا يلوون على شيء...! ابن أختي "غزوان"... أخلى جريحا... حمله على ظهره وأتى به إلى الخطوط الخلفية ليسعفوه...!

الضابط:

- كيف أتيت...؟! لماذا تركت الساتر...؟ خذوه... أعدموه...!

غزوان:

- لحظة يا سيدي... أنا لم أتراجع... لم أنهزم... أخليت نائب العريف "حمود" إنه جريح... أتيت به لتسعفوه...!

الضابط:

- أعدموه؟.. قلت أعدموه...!؟

وجاءوا به إلى أمه وعلى تابوته بالخط العريض "متخاذل"...

هكذا بهذه السهولة واللاّمبالاة يموت شباب البلد ورجاله...! الموت الأحمر يلف المدينة... والرقع السود تملأ الأرجاء... بينما المذياع يظل يزعق بالأناشيد الوطنية طوال الليل والنهار... والشعراء المرتزقة يؤلّهون "الريّس"... والريس ينتفخ ولكنه لا يصدق: "أحقا إنه كما يقول هؤلاء الشعراء...؟!"

حميدة

تستيقظ في موهن من الليل فزعة... تصيخ السمع... جلبة وضوضاء... أصوات رجال ونساء يختلط بعضها ببعض...

- يا ساتر...؟ ماذا بعد...؟ أشهيد جديد...؟

تضع العباءة على رأسها... تخرج... فترى مجموعة من الرجال والنساء بالقرب من بيت "حميدة" الضريرة...

- يا للهول... لعل ابنها الوحيد هذه المرة...!

تقترب من المجموعة... تسأل إحدى جاراتها: ماذا يا أم عبد الله... ما هذه اللمة؟!

تقول أم عبد الله بصوت متقطع:

- لقد جاءوا بابن "حميدة" شهيدا... الباب مغلق... وحميدة -كما تعلمين- لا تغادر ضريح "الجنيد" إلاّ لماما...!

- والعمل...؟!

- أرسلنا إليها واحدا من الجيران ليأتي بالمفتاح ويعود بها إلى الدار...!

التابوت ملقى على الأرض... ورجال المحلة ونساؤها ينتظرون "حميدة"...!

تأتي "حميدة" متوكئة على عصاها يقودها ابن الجيران... تُولْول... ترسل صوتا مكتوما كالعويل... تخرج المفتاح من جيبها... يأخذه أحد الجيران ويفتح الباب... يحملون التابوت ويدخلون... وحميدة تشرب هول الفاجعة... سكرى تتخبط وتترنح... تُولْول... تهمْهم:

- قال لي "الجنيد" هذه الليلة: يا أم عمر... احتسبي عمر...!

قلت له:

- دخيلك يا سيدي... إنه ابني الوحيد...!

قال:

- احتسبي عمر... نفذ قدر الله...

تترنح يمنة ويسرى وتقول:

- على العين والرأس... على العين والرأس...!

شبح امرأة

نهضتْ من الفراش على عجل... تلفعتْ... التفّتْ بعباءتها... وانتعلت نعليها... طفلها ينام بعذوبة... تخرج... الليل كثيف فوق هذا الزقاق الضيق... أناخ بكلكله فوقه...!

- لا بد أن أذهب الآن لآخذ مكانا في الطابور الطويل وإلاّ نَفد الخبز وبقيتُ جائعة...

أي خبز...؟! إنه خبز على كل حال... يقولون: إنه يطعمنا علفا حيوانيّاً... دقيق هو مزيج من الشعير والذرة وأشياء أخرى لا يعلمها إلا الله... كثيرون يشكون من أوجاع في بطونهم من جراء هذا الخبز... الحكومة توزع الدقيق على الأفران، والأفرانُ تعجن وتخبز... الظلام كثيف ينهمر زخات فوق عينيّ... بيننا وبين الفجر ساعة زمن...

- ما هذا...؟ أشبَح هذا...؟

تقترب قليلا..

- إنه شبح امرأة لا شك في ذلك...

أقتربُ وأقتربُ فإذا بي أرى حميدة... وهي تضع المفتاح في مغلاق الباب وتغلقه بإحكام ثم تمضي مسرعة... ركضتُ وراءها... أمسكت بتلابيبها...!

- إلى أين يا "حميدة"...؟!

حميدة:

- سليمة...؟!

- نعم أنا سليمة... ولكن أين تذهبين في هذا الليل المطبق والفجر لمّا يبزغ بعد...؟!

حميدة:

- ناداني طلبني لأكون إلى جانب ضريحه.

- من هو الذي ناداك...؟!

حميدة:

- "الجنيد" نفسه...!

ولكن أيام العزاء لم تنته بعد...

حميدة:

- عزائي عند "الجنيد" وخاله الراقد بجنبه "السرّي السقطي".. عزائي هناك، وليس عند هؤلاء النسوة الثرثارات...

شدهت ولم أحر جوابا...!

- حسنا ولكن دعيني أخذ بيدك.

حميدة:

- لا حاجة بعد اليوم لمن يقودني... إني أبصر الطريق إليه... اذهبي لشأنك يا سليمة... ودعيني أذهب لشأني...!

وفجأة اختفت... ابتلعها الظلام... أو ذابت في الآفاق...!

وفي الصباح جاء نسوة المحلة للتعزية... كدن يكسرن الباب... لا جواب... بعضهن قلن:

- ماتت "حميدة" حزنا على ابنها... وأخريات قلن:

- لعلها ذهبت لبعض شأنها وستعود...!

أسرعتُ إليهن فقصصتُ عليهن ما رأيت من شأنها... أصغين متعجبات إلاّ أن كثيرات منهن قلن:

- خولطت المرأة في عقلها...

ثم حوقلن وانصرفن إلى بيوتهن...

الدرويش

حلّ المساء... أسدلت العتَمة أستارها... دخلتْ المطبخ لتغلي اللبن وتهيئ الرضاعة لطفلها... أخذت علبة الكبريت... فتحتْها... فارغة من الأعواد... لبست عباءتها... مضت خطوات... بيت أم خالد بالجوار... الباب نصف موارى... دخلتْ... دهشتْ... تسمّرتْ قدماها... ما هذا...؟! الدرويش حسن جالس على كرسي في فناء الدار وأمامه طبق طعام... وأم خالد تجلس بالقرب منه لا جلباب ولا خمار...

- من...؟

- أم محمد...

- ادخلي...

- يا أم خالد أحتاج إلى عود كبريت... (بتردّد) نفدت الأعواد عندي...

- تعالي... ما لك... ادخلي...

ولكن هذا الدرويش ما شأنه... يمرّ بين فترة وأخرى بهذا الزقاق والأمهات -إذا مرّ- يخرجن بأطفالهن ليرقيهم ويشملهم ببركته... قال: إنه نزيل الشيخ الكيلاني وضيفه... لحيته كثة وطويلة أكثر مما ينبغي... عمامته خضراء وثخينة أكثر مما ينبغي. وسبحته طويلة أكثر مما ينبغي...

غريب الأطوار واللباس... جبته أو قل خرقته كل رقعة فيها من لون... كل شيء فيه أكثر مما ينبغي... يأتي فتضع الأمهات أطفالهن بين يديه ليرقيهم إلاّ أنه إذا جاءت أم خالد بطفلها يطيل في رقيته... يحتضنه ويقبله بشوق غريب... من أين طلع علينا هذا الدرويش... انشقّت عنه أرض الزقاق فهو لا يغيب إلا ليظهر... ولا يظهر إلا ليغيب...

- خذي أختي أم محمد، هذا عود كبريت...

تأخذ العود... تنظر إليها... تقرأ في عينيها السؤال المخيف... وكأنهما تقولان:

- ماذا يفعل هذا الدرويش عندك...؟!

أم خالد:

- أتدرين مَن هذا الدرويش؟

أم محمد:

- كل الذي أعلمه أنه واحد من دراويش الحضرة الكيلانية.

أم خالد:

- إنه أبو خالد... متنكرا بهذا الزي... وهو هنا في بيته وبين ابنه وزوجته. أتذكرين يوم اقتحم داري في منتصف الليل تلك الثلة من "الانضباطية" وقالوا: "زوجك هارب... جئنا نفتش عنه... إذا ألقينا عليه القبض سيكون مصيره الإعدام". لقد هرب أبو خالد من وحدته في الجبهة اللعينة وتنكّر بزيّ درويش، وجاوَر عند ضريح الشيخ الكيلاني يمسي ويصبح هناك... وبين فترة وأخرى يأتي ليزورني ويزور طفله... فهل آمنك على هذا السر يا صديقتي...؟ قالت:

- اطمئنّي فقلبي مقبرة أسرار.

يا ويلتاه...! غفرانك يا رب على ما خامر ظنّي من سوء...!

لا أنام

الليل يسكن قلبي وقلّما يسكن عيني... أطبق أجفاني ولكن لا أنام... أتقلب على جنبي ولكن لا أنام... رأسي يكاد ينصدع... ينشطر شطرين... ولكن لا أنام... مكبّرات الصوت في الشارع العام مطارق تتوالى فوق رأسي... أغان وأناشيد... الآلاف منها تنطلق من المذياع دون توقف... المقرات الحزبية ترقص في طرب على إيقاع موسيقى الموت... هؤلاء الإيرانيون جراد بشري زاحف لا يريد أن يتوقف... ماذا يريدون...؟! أنحن بدأنا الحرب أم هم البادون لا أحد يدري... قيل لهم الذهاب إلى "القدس" يمرّ من "بغداد"... زعموا أن "خميني" وضع في جيوب جنوده مفاتيح الجنة، وقال لهم: "اذهبوا وادخلوا... الحسَين معكم يشهد صنيعكم... المفاتيح في جيوبكم... اذهبوا وافتحوا حتى من قبل أن يفتح لكم الملائكة"... موجات بشرية عارمة تتبعها موجات عارمة أخرى... يَقتُلون ويُقتَلون ورايات الموت ترفرف فوق الرؤوس هنا وهناك... والرقع السود تكاد تغطي المدينة هنا في "بغداد" وهناك في "طهران"... نساء تتأيم... أطفال يتيتمون... أمهات ثكلى... أهذا هو الطاعون الذي سمعنا عنه...؟! أهذ هو الوباء الذي لا يسْلم منه أحد... لا أنام... لم أعد أسيغ طعاما ولا شرابا مع هذا الصداع القاتل... الجراد البشري يأكل الأخضر واليابس... السماء لم تعد تمطر إلا دما... القحط والجدب

ضارب أطنابه في حقول المدينة وبساتينها... صوحت الأزهار... أقفرت المدن من الشباب والرجال... النخلة الوحيدة في فناء البيت لم تعد تعطي تمرا... هربتْ بلابل النخيل... أفزعها هدير الطائرات ودويّ القنابل والصواريخ... الكلاب تعوي من جوع... والقطط تموء من خوف... وأنا لا أنام... الصداع يقتلني... ينهكني...!

تنهض من فراشها... تقرأ المعوذتين... ثم تمسح رأسها... والليل يطول ويطول وكأنه لا يريد أن ينصدع... الطفل نائم في سريره...

- نمْ يا محمد... نم يا بني...

ولكن لماذا لا يسرع الفجر بالمجيء... يخيفني الليل... تخيفني لياليه الحبلى بالمآسي، لا يأتون بالشهداء إلاّ في الليالي تحت جنح الظلام ليستروا على شلال الموت الذي يهدر ولا يتوقف... تعال يا نهار... اطلع أيها الصباح... إذا طلع النهار ذهبتُ إلى المستوصف لعلهم يعطوني شيئا أسكن به وجع هذا الصداع المرعب...!

أثرياء الحروب

لم تنم... ظلّت ساهرة تنتظر طلوع النهار... طلع النهار... تركتْ طفلها عند جارتها "أم خالد".

- أم خالد... هذا طفلي... سأتركه في رعايتك... ساعة زمن... رأسي يكاد ينفجر... سأخطف رجلي إلى المستوصف القريب... لعلهم يعطوني شيئا أسكن به صراخ هذا الرأس...!

تذهب مسرعة... تمر بدار "حميدة"... الباب مغلق... البيت صامت صمت القبور... "حميدة" أخرويّة... تعيش معنا بجسمها إلاّ أن روحها هناك تحلّق مع أرواح أهل الله... "الجنيد"، وخاله "السري السقطي"، و"بشر الحافي"، و"معروف الكرخي"، و"الكيلاني"... كل يوم عند واحد منهم... تجلس عند ضريحه... لا تفارقه... إلى أن جذبها الجنيد... استأثر بها لنفسه...تركت الكل وجاورت عنده... أواه... ما أشدّ وجع رأسي... تسرع... تدخل المستوصف... تقف في الطابور... يأتي دورها... تدخل...

- من ماذا تشكين...؟

- رأسي يا دكتور... يكاد ينفجر... لا يدعني أغمض عيني...

- حسنا... ولكن ما هذا السواد الذي تلفّين به نفسك...؟

- نعم...؟

- هذه الملابس السوداء...؟

- زوجي شهيد.

بابتسامة إشفاق...

- وتريدين ألاّ ينصدع رأسك وجعا...؟!

يكتب الوصفة على عجل...

- خذي قرصين... قرصًا في الصباح وقرصا في المساء قبل النوم...!

تخرج... تأتي صيدلية المستوصف... تسلّم الوصفة إلى الصيدلانية...! بغير اكتراث تنظر إلى الوصفة... غير موجود... يمكنك أن تجديه في الخارج... تخرج تتخطى عتبة المستوصف... وجع رأسها يشتد... يلتقيها رجل... يسألها:

- هل حصلت على الدواء...؟

- لا والله...!

- دعيني أنظر إلى الوصفة...!

- ماذا لو وجدته لك...؟

- دخيلك... ألحقني به...!

- ولكن تكلفته عالية بعض الشيء...!

- كم يعني...؟

- ثلاثة آلاف دينار...!

- خذ وأعطني...

تأخذ الأقراص... ماذا لو لم أكن أحمل هذا المال... إنه بعض مما نفحني به أهل المحلّة معونة ومواساة... أهلنا هنا... أهل هذه المحلة كم هم طيّبون...!

تسرع... تدلف إلى الزقاق... في المدخل يلتقيها إنسان... يا له من كربه... ابتسامة صفراء تنم عن كراهية... يواجهها... يقول:

- زاركم الدرويش "حسن" هذا الصباح...؟

- من أين لي أن أعرف... منذ الصباح وأنا في المستوصف...

الابتسامة الصفراء نفسها...

- لعله يزوركم قريبا...!

كم كريه هذا الإنسان... سؤاله مريب... لعله يريد أن يوحي بأنه يعرف حقيقة الدرويش "حسن"...! شأنه كله مريب...!

تمضي مسرعة... تدخل بيت جارتها "أم خالد"...

- شكرا لك يا أم خالد... أتعبتُك مع طفلي...!

- لا، أبدا... كان في غاية الهدوء... ماذا فعلتِ...؟

- أعطاني الطبيب أقراصا لوجع الرأس... اشتريتها من الخارج... من واحد من سماسرة الدواء...

مسخت الحرب الناس قلبَتْهم رأسا على عقب... رحماك يا رب... الحرب سَفَّاكةُ دماء... مصَّاصَةُ دماء... تجار الحروب غدَوْا ذِئابا في إهاب بشري... صار الناس إما جوعى حتى الموت، أو مُتْخَمون حتى الانفجار... رحماك يا رب...!

الجيش الشيطاني

الليل يخيفني... يرعبني... لا أعرف لماذا تشتد الآلام إذا اشتد الليل قوة... يأتي على مهل... رفيقا أَنوسا وَدُودا...

تأخذ القرص المنوم... حتى إذا انتصف بلغ عنفوان قوته... واشتدت ظلمته... وازداد هطوله... يَشُدُّ المدينة إليه بعنف... يريد أن يغرقها بلججه... ويأتي معه الموت... كل الذين ماتوا ممن أعرفهم ماتوا حيث يبلغ الليل عنفوانه...تُرى هل بين الليل والموت نسب...؟ ربما...!

ومع عنفوان الليل يعنف شياطين الإنس والجنّ... يجوسون خلال الطرق والشوارع والأزقّة والبيوت... جيش شيطاني... يتخطف الناس من بيوتهم... يأخذهم ثم لا يعودون... أستاذ علم النفس في كليتنا اختطفه هذا الجيش من فراشه في منتصف الليل... لم يقل شيئا... أنا سمعتُه بأذني... قال:

- يقول علم النفس: إن القادة الدمويين هم أكثر الناس جبنا...

قالوا:

- إنه يُعَرِّضُ بالقائد...

أستاذ التاريخ الحديث اختطفته الزبانية وكذلك في منتصف الليل... كل الذي قاله:

- إنّ بعض الحروب لا معنى لها ولا ضرورة...

قالوا:

- إنه يُعَرَّضُ بالحرب العراقية الإيرانية...

أستاذة علم الاجتماع... طرقوا الباب عليها... خرج زوجها...

- نعم...؟!

- الأستاذة من فضلك...!

- في هذه الساعة...؟!

- لا تقلق... سنعيدها حالا... سؤال واحد تجيب عليه ثم نُعيدها إلى البيت بأنفسنا...

ذهبتْ ولم تعد... الذي قالته:

- ويل لشعب تتولى أموره أوطأ طبقاته...! قالوا:

- هذا تعريض به وبحزبه...!

أقفرت الجامعة ممن لهم وزن علمي مرموق... جيء بدلا عنهم بتافهين جهَلة... كل مؤهّلاتهم أنهم حزبيّون... تردّتْ الجامعة... هبط مستواها... استبيح حرمها... طلبة حزبيّون يدخلون قاعة المحاضرات وعلى أكتافهم الرشاشات... أساتذة يحاضرون وقراب مسدّساتهم مدلاّة على أوراكهم... ما هذا... أين كنا وإلى أي درك هبطْنا!.. أيّة فوضى هذه!.. إذا كان المستوى الجامعي هكذا، فكيف هي مستويات معاهد العلم الأخرى...؟!

تذهب مع استذكاراتها بينما النوم يثقل جفنيها... القرص المنوّم

يفعل فعله... تغطّ في نوم عميق لا تستيقظ منه إلاّ على صراخ طفلها... تلقمه الرضّاعة... ثم تعاود النوم...!

التكشيرة الصفراء

شيء رهيب -هذه الليلة- سيقع... قلبي هكذا يقول... إذا اعتصر قلبي، فالحدث الرهيب قادم لا محال... إذا حطَّ -فجأة- على روحي قلق غيبي لا أعرف كنهه، فالشيء المريع سيأتي لا محال... هذا ما يقع لي دائما... جربتُ هذا مِئات المرّات... منذ حلّ المساء حلّت بروحي ظلال من فواجع لمّا تأت بعد... لا أدري أين قرأت: "الفاجعةُ الواحدة تسحب وراءها سلسلة من الفواجع الأخرى"... اسْتغفرِي الله... اِهدئي يا امرأة... استعيذِي بالله من الشيطان...

تهيّء الرضّاعة لطفلها... تتناول القرص المنوّم... ضجيج الشارع من وراء البيت يصك سمعها... انتصار جديد... كل هزيمة انتصار... نحن لا ننهزم... ننتصر دائما... ونغنّي دائما... وننشد دائما... ويا أمّة ضحكتْ من جهلها الأمم... وقوافل الشهداء تترى... والرقع السود تغطّي جدران المدينة... ونحن ننشد ونغنّي...

لا شيء أرخص من الإنسان في هذا البلد... كل شيء يرتفع ثمنه إلى حد لا يصدّق إلاّ الإنسان... فإنه يرْخص دائما... أرْخص من التراب... بل أرخص من القمامة... والشعب بيدر موت... يقتات الموت عليه... الموت لا يشبع... وهو يصرخ في كل مرة: "هل من مزيد!"... رحم

الله أيام زمان... أحيل جنرال مشهور على التقاعد وحوكم ضباط لأن خمسة من جنوده لاقَوا مصرعهم وهم يريدون احتلال إحدى القمم في الشمال... فلْيقم والدي من قبره ولْير كيف نموت أكواماً وأكواماً... أفواجاً من بعد أفواج...

تلقم طفلها الرضّاعة... تضطجع في الفراش... تنعس، تغفو... تنام ولا تنام... لا أرتاح حتى في نومي... كوابيس مريعة تقضّ مضجعي... تنام ولا تنام... والكوابيس تترى... الباب يطرق... يتوالى الطَّرق...

- نامي يا امرأة... هذا واحد من كوابيسك... نامي!...

ولكن الباب يطرق... أكثر إلحاحا هذه المرة... وصوت يناديها...

- نامي يا امرأة... أعوذ بالله ما هذا الكابوس الشيطاني اللعين!... ولكن الطرق يزداد حدة وسرعة... والصوت المنادي أقوى هذه المرة... تنهض من الفراش... تصيخ السمع...!

- أم محمد... يا أم محمد...

تسرع... تفتح الباب... أم خالد بين ثلة من الانضباطية... الرجل الكريه نفسه... والتكشيرة الصفراء نفسها...

- ماذا يا أم خالد...؟!

- كما ترين... يريدون أخذي بدلا من زوجي...!

- ولكن كيف...؟ وفي هذه الساعة...؟

- هكذا وكما ترين...!

تصرخ بهم... تحاول الانفكاك من أيديهم...

- دعوني... اتركوني لأُوْدع طفلي عند جارتي...

- اعتني بطفلي... خذي، أمسكي هذا مفتاح الدار... أخبري زوجي بالذي رأيت...!

أضمّ الطفل النائم إلى صدري... ذاهلة... أسمع ولا أسمع... أرى ولا أرى... موجودة وغير موجودة... غائبة عن كل شيء إلاّ عن أم خالد وهم يقودونها إلى السيارة العسكرية... والرجل الكريه نفسه يقول:

- لن يفرج عن جارتك قبل أن يسلّم زوجها نفسه...!

كان "خالد" ينام ببراءة عندما أودعتْه أمّه بين يدي... وضعتُه على السرير إلى جانب "محمد"... وجلستُ أملي النظر منهما... والحدث الرهيب يمرّ على شاشة خيالي كحلم لا يصدق... أو ككابوس مريع...

- ماذا جرى للناس...؟ ما هذه القساوة، هل جفّت ينابيع الرحمة من القلوب...؟!

بدأ خالد يتململ... ثم أعلن عن استيقاظه بصرخات متتالية... أعْطيتُه الرضّاعة التي كنت هيأتُها له من قبل... رفض أخذها... يدير رأسه يمينا وشمالا محتجا... هذه ليست ثدي أمي... يصرخ...

- أريد ثدي أمي...

- أمك ذهبت يا بني... أخذها الزبانية...

وظل يصرخ وأنا حائرة لا أعرف ماذا أفعل... أنهكه الجوع والتعب... فاضطرّ أخيرا إلى أن يستسلم ويأخذ الرضّاعة... مفوضا أمره إلى الله تعالى...

وفي الصباح شاع الخبر في الزقاق كله... ووجد النسوة خبرا مثيرا:

- أم خالد أخذها رجال الحكومة هذه الليلة...!

- ولكن لماذا...؟ ماذا فعلتْ...؟

- رهينة حتى يسلم زوجها نفسه إليهم.

- ولكن... زوجها في الجبهة عندهم.

- هرب... أتعرفين "حسن" الدرويش...؟

- نعم أعرفه... هذا الذي يطلّ علينا في الزقاق بين فترة وأخرى.

- نعم... هو، إنه أبو خالد متنكراً بزيّ درويش حتى لا يعرفه أحد.

- وامُصيبتاه... أي هَول سيقع عليه عندما يسمع الخبر.

وجاء النسوة يسألنني ويكثرن لأشبع فضولهن... يدخلن عليّ أفرادا وجماعات... يرين خالدا... يبدين أسفا وحزنا...

- زاد حمْلك يا أم محمد... آجرك الله...

وكل واحدة منهن تقص قصة كهذه... إنهم يأخذون الزوجات بجريرة أزواجهن... والأمهاتِ بجريرة أبنائهن... والأبناء بجريرة الآباء... أو الآباء بجريرة الأبناء... وعندما لا يجدون من يأخذونه، يصبّون غضبهم فوق أحجار البيوت وجدرانها فينْسفونها نسفا...!

الذئب...!

منذ صار العراق صدّاما وصدّام صار العراق... والعراق خَوَّاضُ مصائب... جَلاَّبُ مآسٍ... ينام على مأساة ويستيقظ على مأساة... المأساة معه تأكل وتشرب... المأساة تفجر مآسي... والفاجعة تردفها فواجع... هذا ما جربتُه بنفسي... ولمستُه مما حولي...!

عصْر هذا اليوم زارَتْني "سنية"... "سنية" زميلة وصديقة... أبدتْ أسفها... اعتذرتْ...

- صدقيني يا أختي لم أسمع باستشهاد زوجك إلاّ مؤخرا... كان الله في عونك... هذا هو قدَرنا نحن العراقيّين... لا مناص منه... هذا الرجل طاعون... وباء كاسح يضرب كل بيت ويدّمر روح كل إنسان... لا حيلة لنا غير الصبر... نصبر وننتظر الفرج...!

بحنانِ أمّ أخذتْ محمدا في حضنها... ناغته... قبّلتْه... وفعلت الشيء نفسه مع خالد...

- كان الله في عونك يا أختي... صرتِ فجأة أمّاً ليتيمين...!

- الشاي يا سنيّة...

تأخذ سنيّة قدح الشاي... تترشف منه رشفات... جلستُ قبالتها...

- حدثيني عن أخبارك... ما أخبار المدرسة...؟ والزميلات...؟

والمديرة العتيدة صاحبة الإبداعات...؟

- ملكة جمال المدرسة... لا أعرف كيف خطرت ببالها هذه البدعة... ما سمعنا بمثل هذا من قبل... ما سمعنا بمثل هذا من قبل... مديرتنا هاوية بدع... ترغب في أن تكون متميزة عن قريناتها المديرات في كل شيء... قدمت استقالتي... أبو محمد قال: "فلْتذهب الوظيفة إلى الجحيم... يهددونك بالفصل... حسنا فلْتذهب الوظيفة إلى الجحيم... لا أريد لزوجتي أن تكون واحدة من هذه الجوقة المجرمة...!" قدمتُ استقالتي وجلست في البيت...!

- حسنا فعلتِ...

- ولكن لقمة العيش هي التي اضطرتني لأكون واحدة في هذه الجوقة... أموري لا تخفى عليك... أنت صديقتي وأختي... فقْرنا المدقع اضطرني إلى أن أقبل على مضض... استغفر الله... استغفر الله...!

- لا عليك... حدثيني ماذا بعد؟!

- أتذكرين "زهراء"...؟

- كيف لا أذكرها... إحدى أذكى طالباتي وأرقهن وأجملهن...

- اختيرت ملكة جمال المدرسة في السنة الماضية...

- ما شأنها...؟

- (بأسى) واضح... جُنَّتْ المسْكينة...!

- ما تقولين...؟!

- ما سمعت...!

- كيف ذلك...؟

- السيارة المرْسِيدسْ السوداء تقف بباب المدرسة... كنت جالسة في غرفة المديرة... دخل شاب أنيق في غاية الأدب والتهذيب... صافح المديرة... قدّم نفسه بكل احترام...

- أنا مدير مكتب الأستاذ عدي... الأستاذ يقدم احترامه وتقديره لك (تشعر المديرة بالزهو) وللهيئة التدريسية كافة... وهو فخور بمدرستكم... (تنتفخ المديرة...) ويتابع باهتمام حصول مدرستكم على المرتبة الأولى بين المدارس في الامتحانات العامة (المديرة تكاد تطير فرحا)... وهو يرجو بامتنان أن تختاري واحدة من طالباتك المتفوّقات لكي تتكرم بمساعدة إحدى قريباته في دروسها... وهي الآن جالسة تنتظر في مقر اللجنة الأولمبية... المديرة تقوم من مكانها تشعر بالزهو... الفرحة لا تسعها...

- على العين والرأس... على العين والرأس...!

ويقع اختيار المديرة على زهْراء... ترسل في طلبها... تخرج من الفصل... تدخل علينا في الغرفة...

- ابنتي "زهراء" اذهبي مع الأستاذ إلى اللجنة الأولمبية... هناك طالبة من قريبات الأستاذ "عدي" يرجو منك مساعدتها في دروسها، والاتفاق معها على الموعد الذي يناسبك...

بكل تهذيب...

- تفضلي يا آنسة "زهراء"... سآخذك بالسيارة إلى "اللجنة الأولمبية"...!

أنا في الدرس الأخير... قبل ربع ساعة من دق الجرس... البوابة تطرق الباب...

- المديرة تريدك على عجل...

خرجت من الفصل... دخلت على المديرة... زهراء معها... زهراء تبكي مرّ البكاء... تحتضنني... تدفن رأسها في صدري... تلطم خديها... تجز شعر رأسها... الوردة ذوت... شحبت... اصفرّت... كأنها خارجة من قبر...

- ماذا حدث...؟! مالك يا أستاذة...؟! ماذا حصل...؟

- تعالي معي لنأخذ "زهراء" إلى بيتها...

نستقل سيارة تكسي... ننزل... تستقبلنا الأم... تسرع زهراء... تحتضن أمها... تنشج... تبكي... تصرخ... تئنّ... تولْول...

- ما بك يا ابنتي... أي هول أصابك...

تأخذ المديرة الأم وتختلي بها في إحدى غرف المنزل... وتنهي إليها الهول الذي حل بابنتها من هذا الذئب الكاسر...

- الذنب ذنبي... صدقيني لم أكن أتصور أبدا أن إنسانا يمكن أن يكون بهذه النذالة... عديم الغيرة والشرف... ساقط... منحط... الويل لي... الهلاك لي... الموت الزؤام لي... ليتني فديتك بنفسي يا ابنتي يا زهراء...

قدمت المديرة استقالتها... وجلست في البيت... شهرا ظلت طريحة الفراش... أما زهراء... فهي حطام إنسان... ساهمة... ذاهلة... فاقدة للذاكرة... لا تحس بشيء... ولا تذكر شيئا... انهارت الأم... أغمي عليها... نقلت إلى المستشفى في سيارة إسعاف وعندما أفاقت وجدت نفسها عاجزة عن النطق... حمل الأب ابنته المحطمة وزوجته نصف المشلولة وانطلق بسيارته إلى مكان ما في أرض الله...!

السجينة

لم أنم... أو بالأحرى لم أستطع النوم... أخذت قرصين من هذا المنوم إلاّ أنني لم أنم... "زهراء" معي... لا تغادر خيالي... تحيا في وجداني... تسكن مشاعري... طاهرة نقية... يغرقها بالدمع فؤادي... أهكذا وبكل سهولة تسقط الطهارة مجسمة بين براثن هذا الذئب المسعور...! أهكذا يقع -وبكل بساطة- هذا الصفاء والنقاء الملائكي في قبضة أوسخ إنسان في هذا البلد...؟! البلد...؟! أليس البلد ومن فيه وما فيه أرضا وسماء وبشرا هو ملْك يمين "صدّام"... بُعِثَ "النمرود" من قبره فكان صدّاماً... وبعث فرعون من أهراماته فكان صداماً... والولدان أليس هما الوارثين لما يملك أبوهما بعد عمر طويل...؟! فلا بأس بأن يعثيا في أعراض الناس كما يعيث... ويستحوذا على ما يشتهيان كما يستحوذ... ومن شابه أباه فما ظلَم...!

"عدي" بسيارته المرسيدس السوداء يجوب "المنصور" والنمر المرقّط إلى جانبه... و"المنصور" في بغداد سوق أكثر روادها من النساء... وعدي يروح ويجيء... ينظر... يعجب... يشتهي... ولا يحول دون اشتهائه أحد... الشريفات لم يعدن يرتدن هذه السوق خوفا على أنفسهن... والله تعالى يمهل ولا يهمل... وإذا هذا الذي أوقع بعشرات العذارى في شباكه يقع هو في شباك كمين... وابل من الرصاص ينهال عليه وهو في

سيارته... وهو وإن لم يمت إلاّ أن شيئا ما في جسمه مات...!! موجة من الفرح والتشفي تعم الناس... وكثيرات من النساء تنفّسن الصعداء...!

يبكي محمد... تقوم من الفراش وتلقمه رضاعته... يبكي خالد تلقمه رضاعته... عجيب أمر هذين الطفلين كأنهما توأمان... إذا بكى أحدهما بكى الآخر... يبكيان سوية... وينامان سوية... ويستيقظان سوية... وأشياء أخرى يفعلانها كذلك سوية...!!

تَعَجَّلْ يا أبا خالد... تعالَ بربك... سارع بالمجيء... زوجتك حبيسة دائرة البوليس العسكري... هؤلاء الضواري الذين لا يخافون الله... لن يفرج عنها ما لم تسلم نفسك إليهم... أسبوع مضى وأم خالد هناك... يا ستار... اللهمّ اشملها بلطفك واسترها بسترك... ألا يمكن أن يحدث لها نفس الشيء الذي حدث لـ"زهراء"؟! يا للهول... تَعَجَّلْ يا أبا خالد... تَعَجَّلْ...

خالد يبكي... محمد لا يبكي... أمر غريب... تُرى أَقَرأ خالد أفكاري عن مأساة أمه فتوجّع لها وبكى...؟! أحاسيس الأطفال مرهفة إلى أبعد حد... فإذا كان مزاج الأم ومشاعرها تنعكس على نفسية طفلها وهو في بطنها، فكيف إذا ما كان خارج هذا البطن؟!

تعجّل يا أبا خالد... تعجل بالله عليك...!

أبو خالد

أصوات المتظاهرين من خلف البيت تطال أذنيها...

"بالرّوح بالدّم نفْديك يا صدّام"...

لا أدري أهو انتصار جديد...؟ أم اندحار جديد...؟ إنهم يتظاهرون إذا انتصروا... ويتظاهرون إذا اندحروا... المهم سلامة "الريّس"... طالما "الريس" موجود، فنحن منتصرون حتى لو جرى دجْلة والفرات دماً... والويل والثبور لمن يجرؤ على أن ينهي للريس أخبارا سيئة من الجبهة... عندما يزور "الريس" القطعات العسكرية... يُحذّرُ مرافقوه الضباط مسبقاً بعدم خدش حسه المرهف بأي خبر مزعج... مرة تجرّأ ضابط وتحدث عما ينقص جنوده من معدّات... فما كاد الريس يغادر المكان حتى انهال عليه المرافقون ضربا وشتما...

- ألم نحذّركم...؟ ألم نطلب منكم عدم مواجهته بما يعكر مزاجه...؟!

و"بالروح والدم نفديك يا صدّام"... وبعض دم العراقيين أولى بالفداء من دم البعض الآخر... "دم العشيرة" مثلا حرام أن ينزف على السواتر الأمامية... أو في حومة المعارك... دم العشيرة دم ملكي أزرق وظيفته أن يُمد شرايين الأمة بالحياة وبالقادة والزعماء من أمثال "الريس"... في

"تكْرِيت" مثلا مسقط رأس "الريس" طعامها ملكي، غير طعام خلق الله الآخرين... يأتيها رزقها رغدا من مناشيء فرنسية أو دنماركية... أجبان... قشطة... دجاج... أسماك... وبأرخص الأسعار... أليست هي التي أنجبت القائد الفذّ... القائد الضرورة...؟! لا بأس أن تأكل غير ما يأكل عباد الله الآخرون... حرام على "تكريت" أن تنتشر فوق حيطانها الرقع السود كبقية مدن العراق... الشهداء والأسرى والمفقودون يجب أن يكونوا من غير "تكريت"... إنهم عشيرة "الريس"... وكما يفدى "الريس" بالدماء... فعشيرته كذلك يجب أن تفدى بالدماء نفسها...!

تخفت أصوات المظاهرة... يهدأ الشارع من خلفها... تسكن المدينة... وهدوء مشوب بالحذر يكتنفها... تتناول القرص المنوم... الطفلان ينامان ببراءة... تتثاءب... ربما بدأ القرص المنوّم يعمل عمله سريعا هذه الليلة... تأخذ مكانها في الفراش... تغمض عينيها...

لولا هذان الطفلان لتمنّيتُ أن أنام فلا أستيقظ أبدا... أبدا... أخاف لحظات ما قبل الاستغراق في النوم... أخافها... كل ما داهمتني من أحداث داهمتني في هذه اللحظات... لا أدري لماذا... وعندها يطير النوم من عينيّ... فعلا إنه يطير... طرقات بطيئة خافتة ووجلة على الباب... يا أذنيَّ أحقّاً ما تسمعان...؟ الباب يطرق لا شك في ذلك... إنه ليس أحد الكوابيس يا امرأة...

تغادر الغرفة... تدلف إلى الفناء... تقترب من الباب الخارجي...

- من؟

- أبو خالد...

- لحظة يا أبا خالد...

تتخمر... تتجلْبب... تفتح الباب... قبالتها أبو خالد بزيّه الدرويشي...

- تفضّل يا أبا خالد...

- زوجتي "زكيه" ليست بالبيت... طرقتُ الباب... عاودتُ طرقه مرارا ولكن لا جواب... هل عندك خبر عنها...؟

ماذا أقول...؟ كيف أجيب الرجل... ترددتُ... تلعْثمتُ... ثم صَمَتُّ...!

- ما لكِ؟... أجيبيني يا أم محمد... قولي شيئا... ماذا جرى لـ"زكية"...؟

أحاول الهرب من الجواب ما استطعت...

- خالد عندي... أرعاه كما أرعى ابني محمدا...!

- أنا أسئلك عن زكية...!

- آه... نعم... زكية...؟ أمّ خالد...؟ حسنا... (أعنّي يا رب) أخذَها... أخذها...

- من أخذها...

- البوليس الحربي أخذها... قالوا: إنهم لن يفرجوا عنها ما لم تسلّم نفسك إليهم...

هوى الرجل... لم تحمله رجلاه... جثا على ركبتيه... ضرب رأسه بالأرض... جز شعره... أنّ... تفجّع... بكى... لأول مرة أرى رجلا يبكي...

- هوّنْ عليك يا أبا خالد...

- لا كان أبا خالد... ولا كانت أيامه... ليته مات قبل أن يسمع هذا...

زوجتي بين يدي أخسّ الخلق... لا كنت أبا خالد... ليتك متّ قبل هذا... أعطني مفتاح الدار من فضلك...

أُسرع... آتي له بالمفتاح... يأخذه... يدخل بيته... يتخلص من زيه الدرويشي... يرتدي بزته العسكرية... يسلمني المفتاح... ويمضي...!

حطام امرأة

أم خالد آتية... زوجها -بالتأكيد- ذهب ليسلم نفسه، وإلاّ لما نزع زيه الدرويشي وارتدى بزته العسكرية... ولكن متى تأتي...؟ لعلها تأتي اليوم... ثلاثة أيام مضتْ منذ أن ارتدى أبو خالد بزته العسكرية وذهب... بالتأكيد ذهب ليسلم نفسه... إذن لماذا لم تأت... قالوا: إنهم سيفرّجون عنها حالما يسلم زوجها نفسه لهم... لعلها تأتي اليوم... بعد ساعة... ساعتين... ثلاث... لا بد أن تأتي... هكذا يحدثني قلبي... خالد طفل وديع... تعوّد على الرضّاعة... حين أقدم له الرضّاعة ينظر إليّ بحزن... أشعر وكأنه يسألني عن أمه...

- أين أمي...؟ أريد أمي...

- انتظرْ يا بنيّ... ستأتي إن شاء الله... اصبر يا ولد... هي آتيه على كل حال...!

الراديو يزعق منذ الصباح... الجراد البشري يزحف نحو "الفاو"... يحتلها الإيرانيون... هكذا يقول الراديو... اعتراف غريب... وراء كل اعتراف بالهزيمة وجبة جديدة من الضباط يتم إعدامهم... هم المسؤولون عن خسارتنا للفاو... صدام يتوعد بالويل والثبور وعظائم الأمور...

الفاو ملتقى دجلة والفرات... منطقة إستراتيجية مهمة كما يقولون...

هي بوّابة العراق الجنوبية... عندما ننتصر فالفضل للقائد الفذ... هو الذي وضع الخطة... وهو الذي أشرف على تنفيذها... وعندما ننهزم لا بد من كبش فداء... أو أكباش فداء... الضباط أهملوا... لم يلتزموا بالخطة التي وضعها القائد الفذ...

انهزمنا... لا بأس... سنعاود الكرة... سنحرر أرضنا... أما أولئك فيقولون: لا أحد يستطيع أن يزيحنا قيد أنملة... عنتريات يتبادلها الطرفان... والناس يموتون أفواجا أفواجا... لتعشْ الثورة الإسلامية وليعش "خُمَيني" قائدها... ويا أمة ضحكت من جهلها الأمم... بل يا أمة ضحكت من غبائها الأمم... الغرب يتفرج... ويمد هؤلاء وهؤلاء بالسلاح والصواريخ والمدافع والقنابل... و"بالروح والدم نفديك يا صدّام" والشهداء يأتون أفواجا أفواجا...!

أم خالد لم تأت بعد... لماذا تأخر مجيئها...؟ تنتابها الهواجس... تأخذها بعيدا... تغيب عن خالد وعن ابنها... وعن البيت... وعن الدنيا كلها... والوجود كله... إلاّ أنها تظل مع أم خالد... ومع "زهراء"...! شيء عجيب... "زهراء" وأم خالد يأتيان سوية ويغيبان سوية... يقترنان في خيالي... دائما يقترنان... لماذا...؟!

يحل المساء... وأماسي الخريف في بغداد عذبة ندية... تجلس في فناء الدار... تتناول الشاي... في المكان نفسه الذي كانت تتناوله مع زوجها الشهيد... يجلسان... يتسامران... يرتشفان أقداح الشاي مع وجبة طعام خفيفة... عينها تعل من دمعها... تنهل منه... تشربه حتى الثمالة... عيناك لم تجفا بعد يا امرأة... مازالتا تحتفظان ببحر من الدمع للآتي من الزمن... هنا كنا نجلس... هذا المكان شهد جلساتنا الحميمة...

ضحكاتنا... أحاديثنا... آمالنا وأحلامنا... مضى ذلك كله... لم يبق منه إلاّ ذكريات دامعة... أسى عميق... وحزن مقيم... وأيام سود لا تريد أن تنقضي... تصبّ لنفسها قدحا آخر... تحين منها التفاتة، ها هو يجلس قبالتها... تبتسم... يتنابها فرح غامر...

- حسنا... تريد قدحا آخر... تفضل يا زوجي العزيز...

تصب الشاي في القدح... تقدمه له... يتناول القدح... يضعه على الطاولة... وبابتسامة ودود يشكرها...

- اشربْ قدحك قبل أن يبرد... أنت تحب الشاي ساخنا... تناول قدحك يا أبا محمد قبل أن يبرد... قدحا آخر تريد... حسنا يا عزيزي...

تملأ القدح... تناوله إياه...

الباب يطرق... تجفل... يرتج القدح... ينسكب الشاي على ثوبها... تنفضه... تنهض...

- مَن...؟

- افْتحي يا أم محمد...

تفتح... قبالتها "زكية" أم خالد...

مَن هذه...؟ أهذه أم خالد جارتي التي أعرفها... لا أصدّق...

تأخذها بالأحضان... يعتنقان... يتبادلان القبل...

أشعر وكأنها تريد الانفلات مني...

- اجْلسي...

أتأملها... عينان مات بريقهما وجه شاحب مصفرّ... وردة صفراء قد دعكتها يد قاسية... شعر أشعث أغبر تخالطه شعرات بيض عند مفرق الرأس...

- استريحي...

أكلمها، ولكن لا ترفع عينيها نحوي...

- ما لك يا أم خالد؟!... أنا أكلّمك... انْظري إليّ... تفضلي اشربي...

تقدم لها قدحا من الشاي... تأخذ القدح بيد مرتجفة تكاد تسقطه...

- خالد ينتظرك... مشتاق إليك...

تنتبه... كأنها قد نسيتْه...

- ائتني به أرجوك...!

عيناها مسمرتان بالأرض... لا تريد أن ترفع عينيها نحوي... ماذا جرى لهذه المرأة؟...

آتيها بخالد... تحتضنه، تقبّله... تلصقه بصدرها... تلقّمة ثديها... يعزف الطفل عن الثدي... يدير رأسه يمينا وشمالا... يا للكارثة الطفل لم يعد يعرف أمه... أهذا صحيح؟ لا أظن ذلك... تصرّفه غريب في غاية الغرابة... ماذا حلّ به...

تأخذ الطفل والمفتاح وتذهب سريعا... عيناها مسمرتان بالأرض...

أضع أطباقا من الطعام على صينية وأذهب إليها بها... ثم أعود...

- غدا التقيكِ إن شاء الله...!

روح مسحوقة

ما لها أم خالد... ماذا جرى لها...؟! كيف تغيّرت...؟! افتقدتُ فيها صدق الحميمية... استقبلتُها بفرح غامر... أخذتها بين أحضاني... لم تستجب لحرارة مشاعري... فاترة... باردة... ماذا جرى لهذه المرأة...؟! عندما احتضنتُها أحسستُ وكأنها تريد أن تنسلّ من بين يدي... شيء ما -بالتأكيد- تَغير فيها...!

تحمل ابنها محمدا... تذهب إلى أم خالد... تستقبلها بفتور...

- محمد جاء يسلم على صديقه خالد... افتقده... تعرفين... صارا صديقين... ينظر إليّ وكأنه يسألني عنه... جئتُ به ليراه...

تضجعه إلى جانب خالد في سريره...!

- كيف أصبحت يا أم خالد...؟ لعلك نمت جيدا... لم تعودي متعبة كالأمس... انظري إليّ أم خالد... أنا أكلمك... أجيبيني... قولي شيئا... لماذا تتهربين مني...؟ تتحاشين نظراتي... هل أنا شيء معد... شيء ملوث تبتعدين عنه...؟!

ابتسمتْ بحزن... حزن العالم كله كان مرتسما على شفتيها في تلك اللحظة... زفرت زفرة حرىّ تحرق الأكباد وتذيب القلوب... انهلت عيناها بالدمع...

- أنا هذا الشيء الملوّث، ولستِ أنتِ... أنا امرأة ملوّثة... أَبْتعد بِعاري عنكِ... أنْأى بخزي عنك... أهرب بنفسي عن نفسك... لا أريد أن ألوّثك... أنا جسد ملوث... روح ملطّخة بالوحل... جسد مستباح... وعفة مغتصبة... وكبرياء مسحوق... توسّلت إليهم... قبّلت أياديهم... جثوت تحت أقدامهم: "لا تفعلوا... أرجوكم لا تفعلوا... اتقوا الله... أنا أختكم... دخيلة عندكم... أسيرة بين أيديكم... أستجير بشرفكم... ألتجئ إلى نخوتكم!"... ذئاب مسعورة من حولي... نهَّاشة أعراض... ولاَّغة في دماء الحرائر... ليتني مت قبل هذا وكنت نسْيًا منْسيّا... الويل كل الويل لأبي خالد... والله لن أغفر له... لن أعيش معه تحت سقف واحد... وكيف أستطيع...؟! جسد ملوث... وعفة مهدورة... الويل له مني... أوردني بفعله هذا المورد القذر... أنا الآن مزع روح وفُتات نفس... مطحونة مهينة مخزية... ليتهم جاءوا به شهيدا قبل أن يحلّ بي هذا الذي حلّ...! أعَرفتِ الآن يا صديقتي سبب ما أنكرتِ من شأني...!

ذهلتُ... دار رأسي... مادت الغرفة بي... كدتُ أسقط على الأرض... جاشت أحشائي... تقيأت...

- أعانكِ الله على مصيبتك يا أم خالد... مصيبة ولا كلّ المصائب...

أستغفر الله... هؤلاء القوم معجونون بقبح النذالة... ومصنوعون من صديد الحقارة... وفجأة حضرت "زهراء" وجلستْ إلى جانب أم خالد...!! يقترنان في مخيلتي دائما...!

الاغتصاب

أم خالد بريئة كبراءة "زهراء"... نقية كنقائها... طاهرة كطهارتها... لم يصل الدنس إلى روحها... ولم يطل قلبها... إلاّ أن انكسار طرفها، ووجل روحها ظلاّ يلازمانها إذا التقيتها أو تحدثت إليها... لا يغسل نفسها، ويشفي روحها من دنفها الوجيع إلاّ روح صوفيّ عظيم تجد عنده المواساة والسلوان...!

وتحل أمسية أخرى من أماسي الخريف... المكان نفسه... وإبريق الشاي نفسه... وكرسيه الذي كان يجلس عليه قبالتي نفسه... تملأ القدح...

- تفضّل... ترشفه قبل أن يبرد... إنك تحبه ساخنا...

إنها تصغي إليه وهو يقول كما كان يقول دائما وفي هذا المكان...!

حالنا لا مثيل له في العالم كله... أرأيت بلدا مغتصبا كبلَدنا... حكما مغتصبا كحكمنا... شعبا مغتصبا كشعبنا... كل شيء هنا مغتصب... جاءوا بالحديد والنار والدبّابة والمدفع ولن ينزاحوا إلاّ بالحديد والنار والدبابة والمدفع كما صَرَّح واحد من عصابتهم... "الريس" نفسه في يفاعته مارس قطع الطريق... أكد ذلك شهود عيان... تاجر كبير حدّث أبي وأقْسم بأنه هو نفسه تعرّض لعملية سطو من قبله... في الطريق الترابية بين الموصل وبغداد أيام زمان... أشار إليه بالوقوف... ظنه عابر سبيل يبتغي حمله في

طريقه إلى مكان ما... تقدم إليه ولم يشعر إلاّ وفوهة المسدس تضغط على "يافوخه" سلبه كل نقوده التي جاء بها للتسوق من بغداد... اضْطرّ الرجل للعودة من حيث أتى، خالي الوفاض... ورحم الله القائل:

إذا كان ربّ البيت بالدف ناقرا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

والعصابة على دين رئيسها... دَيدنها دَيدنه... سطا على البلد عنوة... سرقه... وضعه في جيبه... لا حرمة لشيء عنده... لا حرمة لمال ولا لعرض ولا لشرف... لا شيء يحظى باحترام عنده... القانون يكتبه اليوم وينقضه غدا... أيّ قانون...؟! القانون هو... وهو القانون... كلمته قانون... إشارته قانون... رغبته قانون... كل شيء مسموح به... اقْتل!.. اسْرق!.. اغْتصب!.. ولكن إياك أن تقول كلمة نقد تخدش "الريس"، فإن عقوبة ذلك الإعدام... يكفي كلمة من نمّام أن توردك موارد الهلاك... الكلمة تقتله... والطلقة تقتله... وعقوبة كليهما الإعدام لا مناص...

لا يوجد في العالم كله بلد لا موازنة له إلاّ نحن... لا أحد يعرف أين تذهب مليارات النفط عندنا... أين تذهب... وكيف تصرف... وفي جيب أيّ عصابة تنزل... علْم ذلك عند الله علاّم الغيوب...!

- قدحًا آخر تريد...؟ لحظة واحدة...

تملأ القدح...

- تفضل...

يبكي خالد... تجفل... ينسكب القدح في حجرها... تنفضه...

- لحظة واحدة... اصْبر يا بني... سآتيك بالرضّاعة...

تعود... تلقمه الرضّاعة...

- أنتِ يا "أم خالد" وأنت يا "زهراء"... كلتاكما ضحيّتان من ضحايا هذا البلد المغتصب...!!!

مشاغل الناس

في المستوصف قال لها الطبيب...

- وزن طفلك دون الوزن الطبيعي في سِنّه... أطعميه جيّدا... لبن الرضّاعة لم يعد يكفي... أطعميه مع الرضّاعة شيئا آخر... شوربة فواكه مثلا... صفار بيض كذلك... إنه ينمو... نموه يحتاج إلى المزيد من الطعام... ليقوى عظمه ويشتد عوده...

وفي طريق العودة إلى البيت ترى موجا من الناس... يتراكضون... يتزاحمون... ماذا؟....

- من أين اشتريتِ هذا البيض من فضلك...؟!

- من هنالك... من ذلك الدكان ما قبل المنعطف...

تسرع... تأتي الدكان... تقف في الطابور الطويل... يأتي دورها... تسلّم نقودها... تأخذ طبقة البيض...

- تَعال... أين أنت... شهران قبل أن ألتقيك... محمد في حاجة إليك...

حينما تتحول الحكومة إلى تاجر... إلى بائع بيض... إلى بائع خبز... إلى دكان كبير يبيع كل شيء... يصبح الحال هكذا... نتراكض... نسرع من مكان إلى مكان لنحظى بالذي نريد... ما نحتاجه قد نجده اليوم ويختفي

عشرة... الحكومة تطعمنا... نجوع إن لم تطعمنا... شنقتنا بأمعائنا... لم نعد نجد وقتا للتفكير بها... للخلاص منها... يومنا كله نقْضيه في البحث عن الخبز... عن البيض... عن اللحم... عن الغاز... إلى آخر تلك الحاجيات... دوامة رهيبة تنتهي في آخر النهار لتبدأ من جديد في أول النهار التالي... نركض ونركض... كأننا ممسوسون... طائف شيطاني تلبسنا... سئل صدام مرة:

- كيف تستطيع أن تسوس هذا الشعب الشديد المراس...؟! قال:

- أنا وحدي أعرف كيف أسوسه... أسوسه بالحكمة التي تقول: جَوّعْ كلْبك يَتْبعك...

الشعب كلبه... هكذا ينظر إلينا... يُجيعنا لكي نبقى في قبضته...!

انشقَّ صِهْرُهُ عنه... لجأ إلى الأردن... التَفَّ حوله الصحفيون... سألوه:

- ماذا يفعل الشعب في العراق...؟

- إنه مشغول بالركض وراء حاجيّات يومه... كنا نفكر أياما وليالي لكي نبتدع همّاً جديداً نضيفه إلى همومه، نشغله به، ونبعده عن التفكير بنا... لو قام "ميكيافلي" من قبره لتتلمذ على "صدّام"... ولعرف منه ما لم يكن يعرفه...

تسرع... تمر على جارتها... تناديها من وراء الباب:

- أم خالد..! يوزّعون بيضا... هنالك في الدكان ما قبل المنعطف...

- أشكرك يا أم محمد... فورا سأذهب...

تدخل بيتها، تضع طبقة البيض في المطبخ... تأخذ بيضة... تشْويها

على النار... تطعم طفلها... يتلمض الطفل... يزدرد ما في ملعقة الشاي... وكأنه يقول:

- ما أحوجني إليك...!

مساء خريفي جديد... الطاولة وإبريق الشاي والقدحان... ومحمد نائم على سريره بجوارها... تجلس، تترشف قدحها...

- لماذا تأخر أبو محمد... تعال يا رجل!.. أنا في انتظارك...

باب الصالون يفتح... ينسل منه أبو محمد... يخطو خطوتين، فإذا به عندها... يبتسم... يناغي محمدا... يقبّله... يجلس على كرسيه...

- الشاي يا امرأة...

تملأ القدح، تناوله إياه...

- تفضل!..

يضعه على الطاولة...

- اشرب قبل أن يبرد...

تنظر إليه... تتملاه وهو يتناول شايه...

- قدحا آخر...؟

- حسنا...

تملأ القدح... تناوله إياه...

يطرق الباب، تجفل... تفزع... يرتج القدح... ينسكب الشاي في حجرها... تقوم... تنفض ثوبها... تفتح الباب...

- ماذا تريدون...؟

- نحن من الحزب...!

- مرحبا بالحزب... ماذا تريدون...؟

- تبرّعات...

- ليس عندي ما أتبرّع به... لقد تبرعت بزوجي... ألا يكفي...؟!

- نحن لا نريد نقودا...

- إذن ماذا تريدون...؟

- ذهباً... حلْية من حليك... أي شيء... قرط... سوار... خاتم... خلخال... أي شيء... من أجل الوطن وقادسية صدام... وستعوضك الحكومة أضعاف ما تتبرعين به الآن بعد أن تضع الحرب أوزارها.

- ليس عندي حليّ أتبرع بها...

- حسناً... اكْتبي... قولي: "أمْتنع" ووقّعي...

تُوقّع... تغلق الباب... وتلْعن الحزب وأبا الحزب...!!!

مُدنَّسة الجسد

أم خالد لم تعد تذكر زوجها... تتحاشى الإشارة إليه... لم تعد تتُوق إليه... أو تنتظر قدومه... غاضبة منه... ناقمة عليه... أقسمتْ أنها لن تعيش معه بعد الآن تحت سقف واحد...

- لا بد أن نفترق... هروبه سبب ما حصل لي... مدنّسة لا يمكن أن تطهّرني بِحار الدنيا... مجذومة... موبوءة... ما أنا المرأة التي تعرفين...!

هوّني عليك يا أم خالد... لم يصل الدنس إلى روحك... أو يمس طهر قلبك... لا ذنب لك... لا إثم عليك... فعلت ما بوُسْعك... ثرتِ... صرختِ... قاومتِ... دافعتِ... قبل أن تسقطي مثخنة الجراح... لا تثريب عليك يا أختي... غفر الله لك... إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ...!

العراق كله مدنّس... دنسه هذا الفاسق اللعين... هذا العاهر الذي عاث في حرماته... وجاس خلال مقدساته... وكما لم يصل الدنس إلى روحك -يا أختي- فإنه كذلك لن يصل إلى روح هذا البلد... بلد العلماء والأولياء والشهداء والصالحين الذين تُرفْرف أرواحهم في علّيين... والراقدين هناك في أضرحة هذه المدينة ومقابرها... علماء أعلام... وفقهاء أجلاّء... وأولياء وأصفياء... نشروا أعلام الحق... ورايات الهدى... وأقاموا منارات التقى... فكل آثامه لا تطال روح هذا الشعب... لا تلوّث إيمان

وجدانه أو تدنّس نور فؤاده... قاوم هذا الشعب... ثار... استشهد الكثير منه... مات الكثير منه في السجون... اعتلى الكثير منه المشانق... وهاجر الكثير... وتغرّب الكثير... وما زال هذا الروح يقاوم ويجاهد... ولن تخبو جذوته أو ينطفئ لهبه...!

أم خالد مدنفة الروح... وجيعة القلب... جريحة الكبرياء...!!

* * *

- أمّ خالد...

تناديها... من وراء الجدار الذي يفصل بين بيتيهما...

- تعالي... تفضلي... شاركيني شرب الشاي...!

تأتي أم خالد... كسيرة الطرف كما هو شأنها... مهيضة الجناح... منسحقة النفس... تجلس... يتبادلان الترحاب... تملأ القدح... تقدمه إلى جارتها... كرسي زوجها في مكانه من الطاولة... ينتظر قدومه... لم يأت بعد... تُكلّم نفسها... تغوص في وجدانها... "لماذا لم يأت؟.. يتحرج من أم خالد...؟! ربما... لكنه سيأتي...!"

- ما أخبار جارتنا "حميدة"...؟ هل من أخبارٍ عنها...؟ انقطعت أخبارها منذ تركت بيتها وذهبت إلى معتزلها هناك عند الشيخ "الْجُنَيد"... ما تقولين -يا أم محمد- لو ذهبنا غدا سويّة لنزور "حميدة" ونتعرف أحوالها... ونسأل عن أمورها... ونزور صاحب الضريح... نقرأ القرآن وندعو الله ونتضرع إليه لعل نفحة من نفحات رحمته تهبط علينا في ذلك المكان الطاهر، فتمسح بعض ما في قلبينا من أحزان وآلام...؟ ماذا قلت يا أم خالد...؟

- أقول: نعم الرأي رأيكِ، غدا نذهب إن شاء الله..!

- تريدين قدحا آخر؟..

فجأة تراه على الكرسي قبالتها... تبتسم... تملأ القدح... تمد يدها إليه بالقدح...

- ما لك يا أم محمد؟.. إلى أين تذهبين بالقدح... أنا هنا إلى جانبك ولست قبالتك...

- ها...ها... نعم...

يشتد ارتجاج القدح في يدها... يسقط على الأرض... يتفتّت...

- لا عليكِ... أم خالد... فداك القدح وصاحبة القدح...!!

الآتي الأعظم

تنادي من خلف الجدار الذي يفصلها عن جارتها...

- جاهزة أنت يا أم خالد...؟ جاهزة...؟

- عمّاذا تتكلّمين...؟

- عن الذهاب إلى جارتنا "حميدة"...

- أوه... كدتُ أنسى... دقائق وأكون جاهزة...!

تلتقيان... تحملان طفليهما... تسرعان الخطى... تقطعان الزقاق... تدلفان إلى الشارع العام... ما هذا...؟ الدنيا مقلوبة... موج بشري هائل... والهتاف نفسه "بالروح بالدم نفديك يا صدام"... تلتقيهما "ماجدة"... ببزتها العسكرية... الرشاش على كتفها...

- انضمّا إلينا...

- ماذا حدث...؟!

- ألم تسمعا...؟ لقد بدأت معركة استرداد "الفاو"... هيا تعالا... انضما إلينا...!

- ألا ترين...؟ نحن ذاهبتان بالطفلين إلى...

تتركهما وتمضي لتغيب في لجج المظاهرة... وهما -كذلك- تمضيان... والناس يموج بعضهم ببعض... والهتاف يعلو... والمذياع يزعق...

المعركة على أشدها... تمضيان في طريقهما... تستقلان سيارة تاكسي...

- خذْنا إلى ضريح الشيخ "الجنيد"...

تصلان... تدلفان إلى الباحة... شجرة النخيل شامخة باسقة في وسطها... "وعتك" التمر يتلألأ باصفراره تحت أشعّة الشمس... تدلفان إلى الضريح... تستقبلان القبلة... تقرآن الفاتحة... ضريح مبارك... سماوي النفحات... روحي الأجواء... تنظران... تدققان... تبحثان عن "حميدة"... تلتقيانها تصلي في المسجد الصغير بجانب الضريح... وزوار آخرون... منهم من يصلي... منهم من يقرأ الفاتحة... ومنهم من يرتّل القرآن... تنتظران فراغ "حميدة" من صلاتها... تنتهي من صلاتها... تأتيانها... تقبلان يديها... تسلّمان عليها...

- كيف الحال يا شيخة...؟

- نحمده... هذه الليلة كنتما معي... شممت عبير روحيكما... قلت: ستأتيان هذا اليوم... مرحبا بكما... زكية رائحتك زكية... (تتمتم:) الروح تزكو وتبقى... الجسد يذوي ويفنى... تعالي اقتربي مني...

تمسح بيدها صدرها... تتمتم... تقرأ شيئا... لعلها ترقيها...

- أرجوك يا شيخة... تقبلي مني هذا...

- ما هذا يا سليمة...؟

- قليل من الحلوى... عملتُها بيدي...

- أشكرك يا ابنتي... نحن لا نطعم حلوى الدنيا... حلوى الدنيا في أفواهنا سمّ ناقع... علقم... تعافة أنفسنا... قبلتُ هديتك، ولكن أطعميها أنت...

- صنعتها من أجلك...

- أعرف هذا... وأنا ممتنّة لك... طبيبنا... طبيب قلوبنا... منعنا من أن نطعم حلوى الدنيا...

سليمة تفهم ولا تفهم... زكية كذلك تفهم ولا تفهم... هذه المرأة تقول أشياء نفهم بعضها ولا نفهم جلّها... حبات المسبحة تتحرك بين أصابعها... تسبّح... تَتَمْتم...

- لا تحزني يا ابنتي...

كلامها موجّه إلى "زكية"... وفجأة وعلى حين غرة تصرخ:

- الآتي ربما سيكون أعظم هولا... إياك إياك أن تقنطي من رحمة ربك... قفي... قفي... لا تُلقي بنفسك في النار...

شفتاها تتحركان... حبات السبحة تتحرك معها...

- أنتما اليوم ضيفتاني...

تتمتم... تستقبل القبلة... تركع وتسجد... تفرغ من صلاتها... يدخل خادم الضريح... يضع بين يدي الشيخة رغيفا من الخبز وعدة تمرات...

- تفضلا... كُلا معي... هذه تمرات مباركة... تمرات من نخلة الشيخ...

آخذ أنا تمرة... تأخذ زكية تمرة... أضع طفلي بين يديها ترقبه... تضع زكية طفلها بين يديها ترقبه... نستأذن... نقبّل يديها... نخرج... ومن ورائنا يأتي صوتها...

- الآتي سيكون الأعظم...!

الرمز والإشارة

في طريقهما إلى البيت...

- ماذا قالت الشيخة...؟ أنا لم أفهم...

- أنا كذلك لم أفهم... الآتي سيكون الأعظم... شيء مخيف... شيء مرعب... ما هو الآتي...؟ ماذا تقصد... أهو كلام عن الحرب... وعن مآسيها وفواجعها... وعن الآتي من أيامها...؟ أم شيء عنّي أو عنك...؟ هؤلاء الشيوخ يتكلمون كلاما غريبا غير مفهوم... إنهم لا يصرّحون... كلامهم رموز... إشارات... نفهم عنهم شيئا ولا نفهم أشياء... ندرك البعض من كلامهم ولا ندرك بعضه الآخر... والستّار هو الله... انظري... هدأ الطفلان... كفّا عن البكاء... منذ وضعت يدها على رأسيهما ورقَتْهما هدءَا... امرأة مباركة... مكشوف عنها الحجاب... ولكني حزنت... لماذا لم تقبل هديتي من الحلوى... عملتُها بيدي... ردّت هديتي...

- لا إنها لم تردّها... قالت لك: "قبلتُها ولكن اطْعميها أنت"... هؤلاء الشيوخ يتحرجون أن يَطعموا طعام الآخرين... حلواك -يا سليمة- حلوى الدنيا مجموعة فيها (تبتسم)، وحلوى الدنيا سم زعاف في فمها...

- (تبتسم) نعم... إنها امرأة أخروية... هكذا كنت أقول عنها منذ عرفتها... جسمها هنا عندنا... أما روحها... أما قلْبها... فهناك عند مولاها...!

- ولكن ماذا قصدت بـ"الآتي سيكون الأعظم!"...

- الله أعلم... الستار هو الله... اللهم استرنا يا رب...

عتمة مسائية رقيقة بدأت تنشر ظلالها وهما في الطريق... والمذياع يزعق... والحزبيون متجمهرون، وعلى المذياع في المقاهي ينتظرون بُشرى الانتصار يزفها إليهم "الريس"... والأغاني لم تنقطع، والأناشيد تترى... تتوالى... واسْم "الريس" يتردد في كل أغنية أو نشيد مرة "أبو حلا"... ومرة "أبو عدي" ومرة "أبو قُصيّ" ومرة أسمه من غير كنية... لا بد أن يذكر باسمه أو بكنيته...!

يفترقان... كل واحدة منهما تدخل بيتها... ماذا تقصد الشيخة... "الآتي هو الأعظم"... وكلامها عن النار... وكلامها إلى "زكية": "قفي لا تلقي بنفسك إلى النار"... أيّ نار... وكيف تلقي بنفسها إلى النار؟!! أَلْغازٌ في حاجة إلى حلّ...

تهيّئ الرضّاعة لطفلها... ولكنها تفكر... تحاول أن تغوص في كل كلمة قالتها الشيخة... كلامها رموز... طلاسم... نحن لسنا بمستواها لنفهم ما تقول... تضع الإبريق على النار... يغلي... تفوح رائحة الشاي...

- كم تعجبني هذه الرائحة... أشتاق إليها... أستنشقها... أريدها أن تدلف إلى مسامات جلدي... تُعجب أبا محمد كذلك... كان يشمّها من بعيد... يستنشقها بعمق... إذا فاحت صاح من مكانه في الغرفة: "أشمّ رائحة الشاي... أليس كذلك...؟" ها أنذا قد جئت...!

وعلى الكرسي نفسه يجلس... وقدَحه المفضل على الطاولة أمامه... تسكب الشاي فيه... تقدمه إليه... تفضل...

- قدحا آخر...؟

تملأ القدح... تأخذها سنة من النوم... تغفو... ولا تفز إلاّ على صوت "محمد"... يبكي... بينما قدح الشاي في مكانه...!

دَوَّامةُ الجنون

أحسب "زكية" وجدت شيئا من العزاء عن مصيبتها عند الشيخة "حميدة"... مسحت صدرها... رقتها... كنتْها بـ"زكية الروح"...

ارتاحت قليلا... بدا ذلك على وجهها... اطمأنّتْ بعض الاطمئنان... شيء ثقيل على كاهلها خفّ بعض الشيء... حمدت الله على ذلك...

- كنتُ موفّقة في اقتراحي عليها بزيارة الشيخة... زيارةُ "أهل الله" ضماد للقلوب الكسيرة... شفاء للأرواح الجريحة... وعزاء للحزانى والمهمومين...! لاسيما في ذلك الزمن الصعب الذي صار الحزن والاكتئاب سمته وطابعه العام... كثرت الأمراض النفسية... زاد الجنون... تضاعف الانحراف والإجرام... شباب يائسون انتحروا... نساء أشعلن النار في أجسادهن... أخْريات ألقين بأنفسهن إلى لجج الأنهار... بعضهن جاءوا بأزواجهن جثثا متفحمة... ترملن زمنا... تزوجن... حملن... وربما ولدن... ثم تبين بعد ذلك أن أزواجهن أحياء يرزقون في الأسر... اختلطت عليهن الأمور لم يعدن يعرفن ماذا يفعلن... استهولن ذلك... بعضهن انتحرن... وأخريات أصبن بالجنون... أموال اقتسمها الورثة بينما أصحابها أحياء يرزقون... مآسي هذه الحرب وتداعياتها ومضاعفاتها شيء لا يصدّق... دوامة من الفوضى المجنونة غشيت الناس... لم يعد

أحد يعرف أين الصواب وأين الخطأ... أين الحق وأين الباطل... أين العقل وأين الجنون...!

منذ الصباح والمذياع يلعلع... يصك الآذان... أذاعوا بيان تحرير "الفاو":

- طَردْنا الإيرانيّين... لقنَّاهم درسا لا ينسونه...

قال الصحفيون والإعلاميون ووكالات الأنباء:

- إن ما من شبر من أرض "الفاو" إلاّ وفيها قذيفة مدفع... أو شظية صاروخ... أو بقايا إنسان... رؤوس مفصولة عن أجسادها... أطراف مقطوعة... صدور مدعوكة تحت عجلات الدبابات... مئات الألوف من الجانبين سقطوا قتلى... وقوافل الشهداء تترى...

أهذا هو "الأعظم" الذي أشارت إليه "الشيخة"... ربما... و"الريس" بطل الفاو ومحرّرها... فليركع الراكعون... وليسجد الساجدون ولينظم الشعراء غرر المديح وقصائد التأليه: قائد فذ... بطل مغوار... أين خالد وسعد منه... القادسية قادسيته... جرأة غريبة على التاريخ... انتحال رموزه... استخفاف بحرمته... يريد كتابة التاريخ من جديد وكما يهوى... حرب القادسية عربية... وصلاح الدين عربي أبا عن جد وهو تكريتي لم يكن شيئا لو لم تنجبه "تكريت" كما أنجبته... اخترع له نسَبا... وأنشأ له شجرة، فإذا به حفيد سيدنا الحسين بن علي كرم الله وجهه... هكذا وبكل وقاحة ومن دون حياء...!

صوت أم خالد من وراء الجدار:

- أم محمد... تعالي شاركيني شرب الشاي...

- البارحة كنت عندك... تعالي أنت اليوم عندي...

ليس من الذوق أن أتجاهل دعوتها... كنت أحب أن أبقى في المكان نفسه الذي ألتقي فيه زوجي... ذهبت... تَرْحيبها حار هذه المرة... جلستُ إلى جانبها... مَعنويّاتها عالية... شعرتُ أنها لم تعد تتهرب من نظراتي... سعدت بذلك... تناولنا أقداح الشاي... ثرْثرنا... تكلّمنا في مواضيع كثيرة... من وراء الجدار سمعتُ محمدا يبكي، ودّعتها وأسرعتُ إليه...!!!

جاء الأعظم

يطرق الباب... أذهب لأفتح... أم خالد قبالتي على الباب...

- أهلا أم خالد... تفضّلي...

تطالعني بوجه ممتقع... وجبين يتفصد عرقا... وعينين زائغتين تكادان تخرجان من محجريهما... وبدون مقدمة:

- دبريني يا أختي... دبريني... أشيري عليّ...

بجمعي يديها تضرب بقوة على بطنها... ضربات عنيفة هستيرية متوحشة... كأنها تريد أن تقتل نفسها:

- انْزل يا ابْن الفاجر... انزل يا ابن الكلْب...!

أُمْسِك بيدها بقوة... أحول بينها وبين بطنها...

- اهدئي يا أم خالد... اهدئي... ماذا دهاك...؟

- داهية تأخذ أم خالد، وتأخذ يوم أم خالد... لا كانت أم خالد ولا كان يومها... ليت أمّي لم تلدني... الإثم يتحرك في أحشائي... الرذيلة تطلّ برأسها... الفسق يريد أن يعلن عن نفسه... دبّريني يا أختي ماذا أفعل...؟ كيف أتصرف...؟

أمتقع... أذهل... تتسارع دقات قلبي... أحسّ بالاختناق... أسرع أفتح النافذة... أستنشق الهواء... بقوة...!

- ولكن كيف عرفت...؟ ربما أنت واهمة...!

تتأوه... تتوجع... تنوح... تذرف الدمع...!

- الطبيبة قالت ذلك... والفحوصات أكّدت قولها... افعلي شيئا من أجلي... من أجل أختك... اقتليني... أطبقي بيديك هاتين على خناقي... خلّصيني من العذاب... أَنْقذيني من الفضيحة...

بقبضتي يديها تنهال ضربا على بطنها...

- انزل يا ابن الكلب... انزل يا ابن العهر...!

مرة أخرى أمسك بيديها...

- اهدئي أم خالد... اهدئي... استعيذي بالله من الشيطان... استغفري ربك... دعينا نفكر بهدوء... لعلنا نجد حلا...!

- أي حلّ... لا حل إلا الموت... الموت وحده يحل هذه المعادلة الصعبة... (يبرق في ذهني فجأة كلام الشيخة: "الآتي هو الأعظم..." إذن هذا هو الأعظم) ماذا فعل بي زوجي... عدو لا يفعل بعدوه ما فعله هو بيّ... هرب من أجل نفسه... لم يفكر بيّ... لم يفكر بولده... ودفع بي فريسة بين براثن أقذر الناس... هذا ثمرة فعله (تشير إلى بطنها) ليته مات... ليتهم جاءوا به قتيلا ولم يقع بي ما وقع...!

- اهدئي يا أمّ خالد... اهدئي الآن... اتركي لنا وقتا نستعيد فيه عقولنا... لكي نفكر... ربما نهتدي إلى حلٍّ ما... هناك أطبّاء يفعلون ذلك... قوابل يمكن أن يفعلن ذلك... دعينا نفكر... نسأل... نبحث بصمت وهدوء... ربما نستطيع أن نجد مَن يساعدنا في مِحنتنا هذه... أو يشير علينا... أو من يدلّنا على ما ينبغي أن نفعله... اجْلسي... اهدئي...!

امرأة غارقة في دموعها... أستغفر الله... حطام امرأة تئنّ أنين من يقطع قلبه بسكّين... أو ينشر عظمه بمنشار...! من جديد تنهال على بطنها ضربا مفزعا... بهستيرية مخيفة...!

- انزل... انزل... يا ابن أخسّ الكلاب... وأفجر الفاجرين... انزل...

يغمى عليها... تغيب عن وعيها... أُسرع... أرشّ على وجهها رشقات من الماء... أصفع خديها...

- اسْتَيقظي يا أمّ خالد... اهدئي... استلقي على الأريكة... استريحي قليلا... خذي اشْربي ماء... استلقي... ابقي مستلقية... تنفّسي... خذي نفَسا عميقا...!

تهدأ قليلا...

- خذي هذا القرص المهدّئ... اشربي... تناولي القرص...

تهدأ بعض الشيء... تغوص في أفكارها... تبدو وكأنها حظيتْ بالحل... تنهض... أريد أن أذهب...

- تركتُ خالدا نائما... يمكن أن يكون قد استيقظ... يشرع بالبكاء إذا لم يجدني بجانبه...!

- لا أريد أن أتركك وحيدة وأنت في هذه المحنة الجديدة...

- لا بأس عليّ الآن... لا تقلقي... نلتقي -إن شاء الله- في أقرب وقت لنفكر سوية كيف نتصرف...!!

غياب أم خالد

كيف نتصرف... قضيت الليل كله وأنا أفكر... لم أستطع النوم... حين غادرتني "زكية" البارحة بدت وكأنها قد وجدت حلا... وأنها تنوي أن تفعله... جاء "الموت" على لسانها مرتين أو ثلاثا... أهذا هو الحلّ الذي انتهت إليه... أستغفر الله... ما هذا...؟ غدا الموت في هذا البلد شائعا لدرجة أنه لم يعد مستغربا... شاع وانتشر... اعتاد الناس على رؤيته يلازمهم... يعيش معهم... يقابلهم في صباحهم ومسائهم... يأتي مع قوافل الشهداء... مع إعدام العشرات من المعارضين... والعشرات من الهاربين من الجندية... لعبة الموت في هذا البلد غدت هي السائدة... صارت لعبة مشتهاة يشتهيها اليائسون... وأي إنسان في هذا البلد غير يائس...؟! ومن أين يأتي الأمل وظلمات اليأس تزداد كثافة يوما بعد يوم... أم خالد هل تريد أن تمارس اللعبة نفسها... تنضم إلى قوافل الموتى بمحض إرادتها... تبادر ربها بنفسها... أستغفر الله... وطفلها لمن تتركه...؟! وزوجها هذا الغائب الذي لا يعرف أحد إلى أين انتهى... أستغفر الله... ضوء الفجر بدأ يتسلل إليها من خلال النافذة... قامت... تركت الفراش... توضأت... صلت ركعتي الفجر... هيأت الرضّاعة لطفلها... وضعت إبريق الشاي على النار... فاحت رائحته... ما أزكاها... أحبها... زوجي كذلك يحبها... أما من أمل في ظلمة هذا اليأس... عشرون سنة

انقضت منذ اغتصب هؤلاء الحكم... والناس تترقب أن ينهض الجيش لإعادة الأمور إلى نصابها... والجيش لا يفعل شيئا... قضى على ألمع ضباطه... أعدم ألمع قادته... والباقون أغدق عليهم المال الوفير... من يُشترى بالمال اشتراه... ومن لم يستطع شراءه قتله... تفطر... عقلها في دوامة... تفكر... ما هو الحل...؟ الذي في بطنها هل ما زال لم تنفخ فيه الروح...؟! سأبادرها بالسؤال... سأستفسر عن ذلك منها... في جامع أبي حنيفة في "الأعظمية" عالم كبير... فقيه جليل... سآخذها إليه... لعله يفتينا... يهدينا إلى حل... نفعله ونحن مطمئنون وغير آثمين...!

تنتهي من أعمال البيت... تنادي من وراء الجدار: أم خالد... أم خالد... لا جواب...!

أنت أم خالد... لا جواب...! هل مازلت نائمة...؟ لا جواب... تنتابها الوساوس... لعنة الله على الشيطان... تسرع... تطرق الباب... لا جواب... تلح بالطرق ولا جواب... لعنة الله على الشيطان... ربما ذهبت لبعض شأنها...!

ترتدي جلبابها... تقطع الزقاق بسرعة... تدلف إلى الشارع العام... تعبر إلى الرصيف المقابل... ومنه تنعطف إلى الزقاق المقابل... تأتي بيت خالة "زكية"... تطرق الباب... تفتح خالتها الباب... جاءتكم "زكية" هذا اليوم...؟

نعم، جاءت فجر هذا اليوم... تركت طفلها عندنا وقالت: إنها ستذهب في مشوار وتعود...!

شكرا لك يا خالة... لم أرها في البيت... قلقت عليها لذا جئت أسأل عنها...!

تعود أدراجها إلى البيت إلاّ أن الوساوس ظلت تقلقها.

الانتحار

في صباح اليوم التالي وأنا في طريقي إلى "سوق الخضار" طرقت الباب على أم خالد ولكن لا جواب... عاودت الطرق وكذلك لا جواب... انقبض صدري... إذا انقبض صدري فالخبر السوء قادم لا محال... جربت هذا كثيرا... تعوذت من الشيطان... عللت نفسي... لعلها باتت هذه الليلة عند خالتها... ولم لا...؟ هي تفعل ذلك بين وقت وآخر... اجتزت الزقاق... دلفت إلى الشارع العام... واجهتني مجموعة من الشباب وهم يقفون في صف طويل... أقرأ في وجوههم الخوف... وانضباط عسكري يدقق في هوية كل واحد منهم... هويتك...؟ نسيتها في البيت... اصعد السيارة... وأنت..؟ وأنت...؟ السيارة العسكرية واقفة إلى جانب الرصيف بانتظار من يوقعه سوء الحظ بالصعود إليها...!

هذا المنظر يتكرر كل يوم وفي كل شارع... بهذه الطريقة يتصيدون الهاربين من صفوف الجيش... جاوزتهم انعطفت نحو اليمين... حيث سوق الخضار... اشتريت ما أحتاجه... عدت أدراجي... مررت بكشك للصحف... في الواجهة وعلى الصفحة الأولى من جريدة "الثورة" وبالمنشيت العريض باللون الأحمر قرأت: امرأة تحاول الانتحار احتجاجا على هروب زوجها من وحدته العسكرية انقبض صدري... دق قلبي سريعا... الخبر السيئ آت لا محال... اشتريت الجريدة... حشت

الخطى... وصلت البيت... نشرت الجريدة على الطاولة... أقرأ على الصفحة الأولى تفاصيل الخبر وعلى الشكل الآتي: (فجر يوم البارحة رمت امرأة بنفسها من فوق جسر الأحرار في بغداد إلى نهر دجلة في محاولة للانتحار... ومن محاسن الصدف أن مجموعة من صيادي الأسماك وهم في قواربهم شاهدوا المرأة وهي تغوص في النهر، فسارعوا بقواربهم إليها وتم انتشالها من أعماق النهر فاقدة للوعي وهي تنزف نزفا شديدا، وقد حملوها إلى إحدى سيارات النجدة التي كانت واقفة بالقرب من موقع الحادثة حيث أخذتها إلى قسم الطوارئ في مستشفى النعمان في الأعظمية... وفي الحال أجريت للمرأة الغريقة الإسعافات اللازمة، وعندما أفاقت من إغمائها بعد أربع ساعات سألها ضابط التحقيق عن دوافع محاولتها الانتحار...؟ فأجابت: أنها فعلت ذلك احتجاجا على هروب زوجها من وحدته العسكرية على الجبهة. وعندما سمع الرئيس القائد حفظه الله ورعاه بالخبر أكبر وطنية هذه المرأة وأمر بتكريمها بمبلغ سخي من المال مع منحها نوطي شجاعة). فعلتيها إذن يا صديقتي... يا أختي... يا أم خالد... ولكن الله تعالى سلمك... لم يحن أجلك بعد... تذكرت فجأة قول الشيخة: (الآتي هو الأعظم... وتحذيرها لا تلقي بنفسك إلى النار)... ذكية أنت يازكية... جوابك على سؤال المحقق كان غاية في الذكاء... غاية في الفطنة... قطعت كل الطرق على المتقولين... ألقمت الأفواه حجرا... قطعت ألسنة السوء والقال والقيل... وما أظن بطنك إلاّ وقد قذف ما فيه في نهر دجلة... غفرانك يارب... غفرانك...!

النجاة من الغرق

جئت المستشفى... في الاستعلامات سألت عن الغرفة التي تقيم فيها "زكية"...! الغَريقة...؟ نعم، هي... الغرفة (١٥)... نهاية هذا الممر... دخلت الغرفة... "زكية" على سرير المرض... واهنة... مصفرّة... تجلس إلى جانبها على كرسي خالتُها... طفْلها "خالد" يستلقي كذلك إلى جانبها... تراني تبتسم... أنْكبّ عليها، أحتضنها... أقبّلها...

- حمدا لله على سلامتك يا أختي...

وبوهن... وبالدوب أسمع صوتها:

- أشكرك...

تشير إلى بطنها إشارة ذات مغزى...

- فهمت...

تريد أن تقول: "إنه لم يعد في بطني ذلك الشيء المقيت"...!

سلّمت على خالتها... سألتها:

- كيف عرفت...؟

قالت:

- ممرضة هنا في المستشفى جارة لنا، هي أخبرتني... جئتُ المستشفى

وهي بعد في العناية المركّزة... الحمد لله على سلامتها... لم يفعل أحد فعلتها... لو كانت كل امرأة تحتج على ما لا ترضاه من فعل زوجها بهذا الشكل الذي فعلته زكية لا تبقى في هذا البلد امرأة...! ما هذا ما هكذا يكون الاحتجاج...!

- هذه "حلوى" من عمل يدي... أرجو أن تعجبك...!

- أهي حلوى الدنيا...؟ لا أطعم حلوى الدنيا وأنا رِجْل في الدنيا ورِجْل في الآخرة...

- لا، أنت رجلاك كلتاهما في الدنيا إن شاء الله... من أجل خالد...

لم تفهم الخالة شيئا... بدأ كلامنا لها ألغازا... لكنها ظلّت صامتة على مضض ولم تسأل عما عنَيناه...

دخلت الممرضة... جسّت النبض... قاست الضغط...

- أمورك تتحسن تدريجيّا... أنت الآن أحسن... خذي هذا القرص...

تعطيها قدح الماء... تأخذ "زكية" القرص...

- أَسَمعتن...؟

- ماذا...؟

- الإيرانيون...!

- مالهم...؟

- جاءونا هذه المرة من الشمال... فشلوا من الجنوب فجاءونا من الشمال... نطردهم من الباب يأتوننا من الشبّاك... عنيدون هؤلاء الإيرانيون... إنهم الآن في "حَلَبْجة"... أخذوا "حَلَبْجة" من أيدينا... ولكن

"الريس" حفظه الله ورعاه توعّدهم وأقسم أنه سيفعل بهم ما فعله لهم في "الفاو"...!

- متى يمكن لـ"زكية" أن تغادر المستشفى...؟

- نطمئنّ على صحتها ثم ندعها تغادر... الريس مهتم بها...! أكبَر وطنيتها... فنحن كلنا هنا في هذه المستشفى في خدمتها وتحت أمرها...

قالت هذا وتركت الغرفه...! تبتسم "زكية" بمرارة... تنظر إليّ نظرة ذات معنى... وكأنها تقول: "أين أنا من هذا الاهتمام... من أجل كذبة داريتُ بها عارا كان يمكن أن يلحقني صرت بطلة وطنية أَلفتُ نظر "الريس"... وأصبح موضع اهتمامه... وهكذا تقلب الحقائق ويزور التاريخ...!"

انكببتُ عليها... قبّلتها...

- أغادر الآن... أتركك للمزيد من الراحة والاستجمام... ألتقيك في البيت قريبا إن شاء الله...

أسلّم على الخالة وأغادر...!

في الشارع المذياع -وكالعادة- يقذف بسيل هائل من الأغاني والأناشيد في أسماع الناس شاءوا أم أبَوا... وتصريحات "الريس" وتهديداته وتوعداته للإيرانيين لا تنقطع... يبثّها المذياع بين فترة وأخرى...

وصلت البيت... متعبة أنا حقّا... أتعبتْني زكيّة... أقلقتني... أمضتني... اطمأننتُ الآن عليها... غفر الله لك يا صديقتي...!

البطلة

وصلت "زكية"... سمعتُ صوت المفتاح يدور في مغلاق الباب... أسرعتُ إليها... أخذت طفلها بين يدي... طفلها يحبو الآن...!

- مرحبا بك يا أختي في بيتك... وحمدًا لله على سلامتك... لا أَخْلى الله بيتك منك...

ساعدتها... نفضت الغبار عن أثاث غرفتها... أعددتُ فراشها...

- استلقي الآن... استريحي...

ما زالت واهنة بعض الشيء... إلاّ أن اصفرار وجهها خفّ قليلا... علامات نضارة بدأت تدبّ في خدّيها...

- غداؤك اليوم عندي...!

شكرتني...

- ممتنّة أنا منك يا أختي سليمة...!

- أهذه فعلة تفعلينها...؟! أراد الله لك النجاة... سخرّ لك هؤلاء الصيادين لينقذوا حياتك... من أجل طفلك أقلاًّ... ما علينا... كيف أنت الآن... أرى أن صحّتك تتحسن شيئا فشيئا... أنت اليوم أحسن حالا مما رأيتُك عليه في المستشفى...!

يطرق الباب... أفتح... مجموعة من النساء قبالتي...

- نحن من الاتحاد النسائي العراقي... (يحملن بأيديهن هدايا...) الحزب أمرنا أن نزورك ونُكرمك... نحن نَنْحني احتراما لوطنيّتك... عندما تستردّين عافيتك نريد أن تنضمّي إلينا... أن تكوني واحدة منا... ماجدة... مناضلة... الحزب في حاجة إلى النساء من أمثالك...

نساء الزقاق جئن يزرن زكية... يهنّئنها بالسلامة... يأخذن عليها ما فعلته بنفسها...

- الانتحار؟ لا... كان يمكنك أن تهدّديه بالانفصال عنه... بالطلاق مثلا... أما الانتحار فلا...! ولكن أين زوجك الآن...؟ هل عرف ما حدث لك... ما زال هاربا...؟

هؤلاء النسوة فضوليات أكثر مما ينبغي... يردن أن يعرفن كل شيء... اضطررتُ للتدخل... قلت لهن:

- أم خالد يُتعبها الكلام... إنها لم تبلَّ بعد... الطبيب منَعها من الكلام الكثير... لا تستطيع أن تُجيب على تساؤلاتكن... ألا ترين وهنها؟!..

بعضهن اقتنعن... وبعضهن لا يردن أن يقتنعن... سلّمن وذهبن...!

أنا وهي وحدنا... أتيت بالطعام...

- لا تتحركي من الفراش... كُلي طعامك وأنت في الفراش...

تتناول لقيمات مما أمامها...

- طبْخك لذيذ يا سليمة!..

أُشاركها الطعام... نأكل ونتحدث... ونضحك أحيانا...!

- كنت يا صديقتي غاية في الذكاء والفطنة عندما أجبتِ على سؤال ضابط الشرطة... حقّا كان جوابا في غاية الذكاء وحسن التصرف...

تبتسم...

- صدقيني ربما لا تصدقيني... ما أنا التي أجبتُ... أنا لا أعرف ما قلتُ... أُقسم بالله إنّ أحدا وضع هذا الكلام على لساني... كيف قلته...؟ كيف خطر ببالي...؟ لا أعرف... ولازلتُ لا أعرف... وحين قيل لي: "إنك قلت هذا" فوجئتُ... صمتُّ... ولم أعد أجد كلاما أقوله... أقسم أن أحدا وضع على لساني هذا الكلام... أو أحدا استعار لساني ليقول هذا الكلام...!

قلت:

- ربما هو ملك من ملائكة الرحمن...!

قالت:

- ما أنا من أهل الله يا سليمة... لا تسخري مني...!

- والله ما قصدتُ السخرية... كلي يا أختي... كلي... إنك في حاجة إلى المزيد من الطعام لكي تستردّي عافيتك...!

التكريم

مسكينة زكية... هي قتيلة هؤلاء القوم الذين جاءوا ليمشوا في جنازتها... "الريس" يكرمها... و "نسوة الاتّحاد" جئن يقدّمن إليها الهدايا... ما أصدق هذا المثل: "يقتل القتيل ويمشي في جنازته"... هذا دَيدنهم... يقتلون من يتوجّسون منه خيفة... ثم يمشون في جنائزهم... ويرتدون ملابس الحداد عليهم... ويقيمون لهم مجالس العزاء... كثيرون منهم... من المقربين إليهم، من أبناء عمومتهم، من أقطاب حزبهم، قتلوا هكذا... سيارة تصدمهم... نَهر يغرقهم... سطح يلقيهم من فوق ظهره... تخمة مسمومة تقتلهم... رصاصة طائشة ترديهم... خِلاف عائلي يودي بهم... اختفى الكثيرون بأمثال هذه الحوادث... حوادث مفتعلة... يحدسها الناس... يتهامسون بها في مجالسهم الخاصة... ولكن لا أحد يجرؤ على التصريح بها... وإلاّ اختفى هو نفسه وبالطريقة نفسها...!! كل من الأشخاص الذين كانوا يعرفون شيئا من أسرار ما يسمّونه بالثورة التي جاءت بهم إلى الحكم قتلوا... اختفوا من طريق "الرئيس" بأمثال هذه الحوادث... أنْ تَعلم سرّا من أسرار الثورة معناه أنّك ترشّح نفسك للقتل في أية لحظة... الذين يعرفون، كان ينبغي عليهم أن يبدوا أنهم لا يعرفون، أن يتظاهروا بالغباء، وأحيانا بالبلاهة... وإلاّ فهم مرشحون للقتل في أي وقت...!!

مسكينة زكية... حاكوا لها المأساة... ألبسوها إياها... وجاءوا للتسرية عنها... يكرمونها... ويهْدونها الهدايا... ويرشحونها للقبول في حزبهم... ماذا تستطيع زكية أن تقول غير الذي قالته... أو بالأحرى هذا الذي تحرّك به لسانها لتقوله دون أن تَعيه... أو غير هذا الذي استعار لسانها لينطق به كما قالت...! لا شك أن عناية ربانية تداركت هذه المسكينة في محنتها وهَدَتْها لتقول ما قالت... وإلاّ لو نبست ببنت شفة بغير هذا الذي قالته لكانت اليوم ترقد تحت أطباق التراب...!

وهكذا يختفي الحق والصدق في هذا البلد... كل شيء هنا باطل... مزيف... غير حقيقي... كذب... اختلاق... الكل يكذب... مِن "الرئيس" في قمة الهرم إلى أوطأ إنسان فيه... تيار هائل من الكذب... شلال رهيب ينصب بقوة عاتية من فوق لينال برشاشه كل الذين في الأسفل منه... دَيدن هؤلاء... اكْذب... اكْذب... وابق تكذب حتى تُصدّق نفسك ويصدقك الناس...!!!

الآتي من بعيد

بدأت "زكية" تبل من مرضها شيئا فشيئا... تستعيد عافيتها... أعودها كل يوم... قضيتُ إلى جانبها أياما عديدة قبل أن تغادر الفراش نهائيا... ولكن لا أجرؤ على أن أذكر أمامها زوجها أبا خالد... ولا هي تجرؤ على ذكره أمامي كذلك... كأنها تتجاهل وجوده... تتناسى أن لها زوجا... ولكن إلى متى يظل الأمر هكذا... وإذا ظهر فجأة وجاء بيته كيف ستتصرف "زكية" عندئذ...؟! أقسمت أن سقفا واحدا لم يعد من الممكن أن يظلّها ويظله معا... أستغفر الله... نترك ذلك للزمن... كم قرّب من بعيد... وباعد من قريب... وربما نكأ جرحا قديما... أو داوى جرحا مُزْمنا...!

- محمد وخالد أخوان بالرضاعة... شرب محمد اللبنَ من الثدي نفسه الذي شرب منه خالد... لا تنسي هذا يا أختي زكية... هما أخوان... يحس كل منهما باشتياق إلى الآخر... وأرجو الله تعالى إذا كبرا وصارا رجلين ألاّ ينسيا ذلك وأن يتصرفا كما يتصرف الأخوان...

"إن شاء الله" قالت زكية... "إن شاء الله" قلت أنا...!

يطرق الباب... أفتح فإذا أرى قبالتي "مصطفى" ابن عم محمد... ابن أخي أبي محمد قبالتي... سررت..

مرحبا مصطفى... أهلا بك يا بني... كيف عرفتَ أنني هنا...؟

- طرقت الباب فلم أسمع جوابا فجئتُ أسأل جارتك عنك فإذا بي ألتقيك عندها...!

أستأذن من "زكية"... أعود مع "مصطفى" إلى البيت...

- كيف حالكِ يا امرأة عمي... والداي يسلّمان عليك كثيرا... بعثا إليك بهذا المبلغ... يريدان أن أصطحبكِ معي إلى المَوصل... يودّان أن تقضي عندنا أشهر الصيف... جئتُ بإجازة... إجازتي سبعة أيام... أمرني والدي أن آخذ السيارة وأرجع بك معي إلى الموصل... تعال يا محمد... تعال يا ابن عمي...

يحتضنه يشبعه قبلات... محمد يحبو الآن... يأخذه من الأرض... يلاعبه... يرفعه بيديه إلى الأعلى في الهواء ثم يتناوله وهو يهبط... ومحمد يغص بالضحك... ومصطفى في غاية السعادة بابن عمه:

- سآخذه معي بالسيارة... أشتري له بعض اللعب...

يأخذ محمد معه بالسيارة... أعود إلى أم خالد...:

- أم خالد... أرسل والدا مصطفى يدعواني إلى الموصل لأقضي أيام الصيف هناك... ليس من اللياقة أن أرفض دعوتهما... أنا في غاية الأسف... سأضطر لمفارقتك بضعة أشهر... ولكن صدقيني إنّ قلبي سيظل معك...

وجمت زكية... سحابة حزن غشيت وجهها... ولكنها قالت:

- اذهبي في رعاية الله... واستمتعي بوقتك... يكفي ما حمّلتُك من عناء وألَم... لا بأس عليك يا أختي... اذهبي ولكني سأبقى في انتظار عودتك...

أحتضنها... أقبّلها...!

- صحبتك السلامة يا أختي "سليمة"...! فجر غد أغادر... أستودعك الله من الآن... عندما أغادر غدًا تكونين أنت مازلت بعدُ بالفراش...

عاد مصطفى ومحمد إلى البيت... كومة اللعب في حضن محمد... وكومة أخرى من أنواع "النستلات"...

- ماذا قلتِ يا امرأة عمي...؟! مُوافقة..؟!

- فجر غد نمضي إلى الموصل على بركة الله...!

بداية النهاية

غادرنا "بغداد" فجر اليوم التالي في طريقنا إلى الموصل... محمد ينام في المقعد الخلفي من السيارة بينما أجلس أنا إلى جانب مصطفى... مصطفى يقود السيارة... صمت ثقيل والسيارة تنهب الأرض بنا... مصطفى يتثاءب... أكثر من مرة تثاءب... يطرد النعاس عنه... أخشى أن يغفو ومقود السيارة بين يديه...

- مصطفى ما لك...؟ لعلك لم تنم جيدا...؟

- الحقيقة أني لم أنم جيدا... لا أنام نوما عميقا إلاّ في غرفتي وعلى سريري... هكذا تعودتُ... إذا ما تبدّل مكان نومي نادرا ما أنام نوما مُريحا...

سألته رغبة مني في استثارة اهتمامه كي لا تأخذه غفوة وهو يسوق...

- في أي قاطع من الجبهة تقيم وحدتك؟

بالمناسبة مصطفى ضابط برتبة نقيب في الجيش...

- إنها في قاطع "حَلَبْجَة"... نقلوا وحدتنا إلى هذا القاطع بعد أن احتلّ الإيرانيون مدينة "حلبجة"...!

- ولكن كيف الوضع هناك؟!

- الإيرانيون لا يزالون مُسيطرين على المدينة... قمنا بعدة محاولات

لاسترداد المدينة منهم إلاّ أننا أخفقنا... منطقة جبلية صعبة... يبدو أن الأكراد معهم... يقدّمون لهم الكثير من المساعدات... والقيادة الآن تحشد جحافل كثيرة في المنطقة استعدادا للهجوم الكبير المتوقع... منحوني إجازة سبعة أيام وطلبوا من كل المجازين من الضباط أن يقطعوا إجازاتهم ويلتحقوا بوحداتهم عند سماعهم نبأ الهجوم الكبير...!

أسأئل نفسي... لا أعرف لماذا يظل الْمَوصِليّون مغرمين إلى هذه الدرجة بالعسكر... والد مصطفى لواء متقاعد... أصرّ على ابنه أن يلتحق بالكلية العسكرية ليتخرج منها ضابطا... يقال: إن نسبة كبيرة من ضباط الجيش هم من أهل الموصِل... يرثون هذه المهنة أبًا عن جد... ويقولون كذلك إن هذا تقليد ورثه الموصليون من أيام الدولة العثمانية حيث كانت هذه الدولة تختار أكثر ضباط العرب من هذه المدينة...!

صمت... يتثاءب مصطفى... والسيارة تنهب الأرض نهبا...!

- مصطفى ماذا قلت؟

- قلت: إن الهروب من الجيش بدأ يتفشى في صفوفه...؟ نعم يا امرأة عمي... ملوا سئموا... ثمان من السنين وهذه الحرب مازالت على أشدها... والله كلنا سئمْنا جنودا وضباطا وقادة... الحرب العالمية الثانية دامت أقل قليلا من ست سنوات... وحربنا مع إيران تكاد تتجاوز ثماني سنين... زهرة العمر قضيناها في هذه الحرب...!

- مصطفى أريد أن أسألك: ماذا تفعلون بالهاربين الذين يسلّمون أنفسهم...؟

- الهارب الذي يعود إلى وحدته نادما خلال خمسة عشر يوما فلا شيء

عليه غير التأنيب والتنبيه... أما من تطول مدة هروبه الخمسة عشر يوما فإنه يُعدم في غالب الأحيان... مآسي الهاربين والمعدومين شيء بشِع... شيء مُرعب... قبل أيام جيء بنائب ضابط كان هاربا عدة أشهر ثم سلّم نفسه... حاكموه وحكموا عليه بالإعدام رمْيا بالرصاص... عندما يريدون أن يعدموا أحدا فإنهم يجمعون أفراد الوحدة كلها بكافة مراتبهم... هذا النائب ضابط جاءوا به وأوقفوه أمام رجال الوحدة... ثم جاءوا بملابس درويشية... بزي درويشي... وأمروه أن يرتديه... أخذني العجب... ما علاقة هذا الزي بالرجل... ثم علمت أنه كان متخفيا وراء هذا الزي عن استخبارات الجيش... قالوا له على مسمع منا... بهذا الزي نفسه الذي استترتَ به نُعدمك... وليأت الدراويش ليُخلّصوك... وقبل أن يطلقوا النار عليه قال لهم متوسلا... اعدموني... ولكن أفرجوا عن زوجتي... أطلِقوا سراحها... لها طفل في حاجة إلى رعايتها وهي لا ذنب لها... ثم أطلقوا عليه النار...

ندّت عني صرخة توجع... زفرت... اغرورقت عيناي بالدموع...

- ما لك يا امرأة عمي؟.. يبدو أنكِ تأثرتِ... ليتني ما حدّثتُك بهذا الحديث!

- لا عليك يا مصطفى... لا عليك... ولكن ما اسمه؟

- اسمه "وليد"... وينادونه بـ"أبي خالد"...!

صمت... تثاءب مصطفى...

- أتدري يا مصطفى من هذا الذي أعدموه...؟ إنه زوج جارتي "زكية" أم خالد... أختٌ... وصديقة عزيزة...

التفت إليّ... رآني غارقة في دموعي...

- آسف غاية الأسف يا امرأة عمي... لم أكن أعلم ذلك... ليتني ما حدثتُك هذا الحديث...!

- لا عليك يا مصطفى...!

أقسمتْ "زكية" ألاّ تعيش معه تحت سقف غرفة واحدة... وهاهي الأقدار تجعلها تبرّ بقسمها... أخذته من تحت سقوف الغرف لتسكنه تحت سقوف التراب...

اللهم ارحمنا... يا رب واكْشفْ عنّا العذابَ، إنّا مُؤمنون...!

نزهة على ضفاف النهر

في العاشرة صباحا وصلنا الموصل... استقبلني والدا مصطفى بمودّة وبكثير من الترحاب... احْتَضنا طفْلي... قبّلاه... ناغياه...

- استريحي يا أم محمد... لقيتِ من سفرك تعَبا... استريحي قليلا...

جيء بطعام الإفطار... أفطرنا سوية... نام محمد... بيت أبي مصطفى بيت فخم... إنه في الجانب الأيسر من نهر دجْلة... في حيّ يكاد يكون خاصا بضبّاط الجيش المتقاعدين منهم والذين مازالوا في الخدمة... قريب من جامع "النبي يونس" عليه السلام في نَينوى... فرشوا لي غرفة خاصة بي... وأعدوا لمحمد سريرا صغيرا إلى جانب سريري... "عبد العزيز" أبو مصطفى وأخو زوجي، لواءٌ متقاعد... خدم في الجيش ما يقرب من خمسة وعشرين عاما... صارِم بعض الشيء... مُتحكّم بعض الشيء... لا يحب أن يُعارَض فيما يقول... يحب أن يطاع في كل شيء... عندما اجتاز ابنه مصطفى الامتحانات العامة أمره أن يقدم أوراقه إلى الكلّية العسكرية...!

- ولكن يا أبي أنا أحب أن أكون مُهندسا...!

- قلتُ قدِّم للكلية العسكرية...!

ولم يجد مصطفى بُدّا من الطاعة والانصياع... وهكذا صار ضابطا على الرغم منه...!

في المساء أخذني "مصطفى" مع محمد، ووالدته إلى نزهة في السيارة على ضفاف نهر دجلة في مكان يُسمّى "الغابات"... تتكاثف فيه الأشجار ويطيب فيه الجوّ... وحيث تنتشر على ضفة النهر الكثير من المقاهي والمطاعم... جلسنا في مطعم هناك... تناولْنا طعام العشاء فيه... ثم جاء النادل... وضع على الطاولة أمامنا إبريق الشاي والأقداح... ملأت قدحا لمصطفى ولأمه، ولنفسي قدحا... وملأتُ قدح عبد الرحمن زوجي، أبي محمد... "خُذ قدَحك يا أبا محمد!"... يجلس قبالتي... أبتسم... "اشْربْ إنه ساخن كما تحبه"... أغوص في الذكريات... أغيب عما حولي... ألتقيه على مائدة الشاي دائما... ينتزعني صوت أم مصطفى من ذكرياتي وهي تقول:

- هذا القدح الآخر لمن صببته...؟

- نعم... نعم... سأشربه أنا...

سُرّ محمد من منظر النهر... أخذه مصطفى، لاعَبَه... غمس رجليه الحافيتين في الماء... محمد يغص بالضحك... يريد المزيد من الانغماس بالماء... وضعه في أرجوحة للأطفال... وأخذ يدفعه فيها... الأرجوحة تعلو وتهبط... ومحمد فرح مسرور... يعبر عن نشوته بمزيد من الضحك... نام على كتف مصطفى... جاء به يحمله... استغرق في نوم عميق...

في طريق العودة مررنا بمحاذاة جامع "النبي يونس" عليه السلام وعلى نبينا أفضل السلام... أقرأتُه السلام... قرأت الفاتحة... شعرت بأنني في حضرة نبي عظيم قال عنه رسولنا صلى الله عليه وسلم: "إنه أخي بالنبوة"...

قالت أم مصطفى:

- غدا آخذك للزيارة إن شاء الله...

وبعد جولة قصيرة في شوارع المدينة عدنا إلى البيت... والد مصطفى يجلس إلى "التلفزيون"... ينظر إليه تارة... وينظر إلى خارطة بجانبه تارة أخرى ويتباهى بعلمه العسكري:

- أظن أن ساعة الحسم في "حَلَبْجَة" قد اقتربت...! (سأل:) أين محمد؟..

قلت:

- إنه نائم...

قال:

- كنت أحب أن ألاعبه... إنه شبيه أخي المرحوم تماما... حينما أضمّه إلى صدري أشم رائحة أخي فيه...

صعدت إلى غرفتي... مسحت دموعي المنسابة بينما محمد يغط في نوم عميق...!

في جامع النبي يونس عليه السلام

في اليوم التالي أخذني مصطفى مع أمه بعد العصر إلى "جامع النبي يونس" عليه السلام في نَينوى... الجامع قائم على تلّ عال يسمّونه "تلّ التوبة"... يصعد إليه الْمَوصِليون إذا منعوا القطر للاستسقاء والتضرع والدعاء... الذي يرى الجامع من بعيد يحسب أن يدا مباركة تحمله على كفها لتريه للناس من بعيد وهي تهتف بهم أنْ "هلمّوا إلى متجر الله إن كنتم تبْغون ربح الدنيا والآخرة!"...

نصعد إلى الجامع على درج يأخذنا إلى فنائه... ومن هذا الفناء المرتفع يمكن أن نشاهد معالم الموصل ببيوتها وشوارعها وحدائقها ومساجدها... وللمسجد بابان يطلاّن على الفناء؛ باب يفضي إلى ممرّ ضيق يأخذنا إلى الضريح إذا أردنا أو إلى المسجد إذا انعطفنا نحو اليمين... والباب الآخر يأخذنا إلى الضريح مباشرة من دون المرور بالمسجد... وهذا الباب يدلف منه النساء عادة للدخول إلى الضريح مباشرة... دخلنا من هذا الباب وسرنا في ممر ضيق عدة أمتار فأتينا بابا عن يميننا ننزل منه إلى الضريح... شعرتُ وأنا أتخطى الدرج نحو الضريح وكأن أكفّا روحانية مباركة تحملني إليه من دون قدمي... الضريح الشريف في سرداب مضاء بثريات كبيرة كهربائية... أَشمّ أنفاس نبي... أَلْمَس أنوار نبي... أَذُوب في روح نبيّ بقدر ما فيها من قوة وعزة فيها كذلك وجل وتضرع ودعاء...!

استقبلت القبلة... سلّمتُ... دعوتُ... تضرعتُ... قرأتُ الفاتحة... أنا في حضرة نبيّ الدعاء والتضرع... نبيّ بتضرعه اجتاز ظلمات الضيق والكرب... بـ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اجتاز المحنة، وخرج من حبوسه جميعا... "دعاء لا يدعو به مكروب إلاّ فرجّ الله عنه كربته" كما ورد في الأثر... وفجأة وأنا في هذا الاستغراق وقبالتي تماما ألحظ "زهراء" تلميذتي العزيزة... همستُ لها بالسلام... افتر ثغرها عن ابتسامة لطيفة لكنها حزينة...

- أريد أن أراك...

- ألتقيك بعد صلاة المغرب في فناء الجامع...

جلستُ بالقرب من الضريح... أقرأ القرآن وأتضرع إلى أنْ رُفع آذان المغرب... فاجتزنا إلى مصلى النساء... وبعد الانتهاء من الصلاة خرجنا إلى فناء الجامع لألتقي زهراء... التقيتُها... تَصافَحنا... ضممتُها إلى صدري... قبّلتُها...

- كيف حالكِ يا ابْنتِي...!

- أحمد الله تعالى... آت للزيارة كل اثنين وخميس...

- ولكن هل أنت مقيمة هنا... في الموصل...؟

- نعم... سكنّا هنا... ولكن مَن هذا الشاب الذي يقف قريبا منا وهو يلحظك بين الفينة والأخرى...؟

- إنه ابن عمي "وجدي" وزوجي...

- تزوجتِ...؟

- نعم... نعم... تزوجتُ ابن عمي... تعلمين مَنْ للسلعة المعيبة غير

أهلها...

اغرورقت عيناها بالدموع...!

- لا تقولي لي هذا يا ابنتي... لا تقولي هذا... ألقي بأحزانكِ وراء ظهرك... واستقبلي أيامك بالمزيد من التفاؤل... الله يعلم إنك أطهر من الطهر... وأنقى من النقاء...

خطا زوجها نحونا... قالت زهراء...

- هذه مدرّستي... أعز مدرساتي عليّ وأحبّهن إليّ...!

قلت:

- في يدك جَوهرة... في كنَفك دُرّة غالية... حافِظْ عليها... صُنْها... امنَحْها المزيد من الحب...!

يقول:

- سيدتي... توصيني بحبة قلبي...؟ ومهجة روحي...؟!

استودعتها الله ثم افترقنا...!

تحرير حلبجة

نزلتُ إلى أسفل متأخرة عن موعد تناول الإفطار... تناول الإفطار هنا في الساعة السابعة صباحا... شتاء وصيفا وفي كل الفصول... هكذا اعتاد أبو مصطفى في حياته العسكرية... وبقي ملتزما بهذا الموعد بعد تقاعده لا يزيد عليه ولا ينقص... خارطة العراق مكبرة أمامه على الطاولة دائما وهي معلمة بدبابيس حُمْرٌ وصُفْرٌ... تؤشر معالم تحركات الجيش الإيراني والجيش العراقي... هذه لعبته أو قلْ هوايته... ويظل يستحث ذاكرته ويستقرئ علمه العسكري ليتنبأ بمكان المعارك وزمانها وطرائق سيرها...! سلّمتُ...

- تأخرتِ يا أم محمد.. (هكذا قالت أم مصطفى وأردفت:) طعام الإفطار على الطاولة في المطبخ...

المطبخ واسع، وضعوا في زاوية منه طاولة وكراسي يتناولون فيه وجبات الطعام... أعددت لنفسي ولمحمد وجبتي إفطار... تناهى إلى سمعي وأنا أفطر صوت الموسيقى الحماسية التي اعتدنا على سماعها عند كل البيانات العسكرية... يا ستار... ماذا حدث أو ماذا سيحدث... أهي إنذار بدفقات جديدة من الشهداء... التلفزيون يزعق بالموسيقى...

- ألم أقل لكم: إن تحرير "حلبجة" بات وشيكا؟.. (هكذا قال أبو

مصطفى...) توقعتُ هذا... العِلْمُ العسكري هكذا يقول... انتظروا... سيذيع التلفزيون نبأ الشروع بتحرير "حلبجة"...

صمت رهيب خيم علينا... وحزن يغشى مصطفى وأمه... وموجة حماس ومباهاة تغشى أبا مصطفى... سكتَتْ الموسيقى... أُذيع بيان الشروع بمعركة تحرير "حلبجة"...

- ألم أقل لكم؟.. ألم أقل لكم؟.. مصطفى يقوم من مكانه... يغيب في غرفته... يطلع علينا بعد دقائق ببزته العسكرية...

- لا بد أن أقطع إجازتي وألتحق فورا... هكذا بلّغونا...

أم مصطفى يبدو عليها القلَق... أنا كذلك قلقتُ... محمد ينظر ولا يفهم... يتساءل لماذا لم يأخذني مصطفى إلى حضنه...؟!

ودّعنا مصطفى، قبّل يد والده...

- مصطفى كُنْ رجلا كما عهدتك!.. بيّض وجه أبيك...

قبّل يد أمه...

- دعواتك يا أمي...

صافحته... طبعت قبلة حنان على جبينه...

- صحبتك السلامة... كان الله معك... أستودعك الله... أأتمنه عليك... هو الحافظ الأمين...

رفع محمدا من الأرض إليه... قبّله...

- لا تحزن! سأعود إن شاء الله وآخذك إلى "دِجْلة" لتغمس رجليك فيه...

يجتاز الصالون... قبل أن يخطو إلى الخارج نادَته أمه:

- دقيقة يا بنيّ...

تقرأ المعوذتين... تمسح بيدها على رأسه... وصدره وجميع جسمه...

- اذهب يا بني سلمك الله وأعادك إلينا سالما غانما بإذنه...!

* * *

أبو مصطفى غيّر كثيرا موقفه مني... لم يعد ذلك الرجل الصارم الجاف، بدأ يتودد إليّ... يسمّيني ابنته...

- اجْلِسي يا ابنتي... تعالي يا ابنتي... أريد قدح شاي يا ابنتي... أريدك على المائدة معنا يا ابنتي...

أحسستُ وكأنه يريد أن يكفر عن إساءاته السابقة ليّ...!

كان رافضا لفكرة زواج أخيه مني...

- سأقاطعك نهائيا لو فعلتَ هذا... لا أنا أخوك ولا أنت أخي!..

ثلاث سنوات بعد الزواج لم يلتقيا ولم يتزاورا... عبد الرحمن رفض أن ينصاع إلى إرادة أخيه... وأصر على الزواج مني... كان قد التقاني في زيارته للمدرسة... جاء يعرض علينا عينات من قماش كتاني لشركة النسيج التي يعمل فيها كمدير مبيعات...

- سمعت أنكم تبحثون عن زيّ موحّد للطالبات... حسنا هذه نماذج جيدة من الأقمشة من نسيج شركتنا، اختاروا منها ما تشاءون والشركة مستعدة أن تزوّدكم بالكمية التي تريدون وبالسعر الذي يناسب طالباتكم...

وبعد ذلك خطبني وتزوجني...!

وعندما استشهد أخوه حضر العزاء على مضض... ولم تكد تنتهي أيام العزاء الثلاثة حتى عاد أدارجه... في أيام العزاء الثلاثة كان يتجاهلني... لم يتوجه إليّ بكلمة... لم يعزني... لم يقل لي كلمة مواساة واحدة...

يبدو الآن وكأنه يريد أن يكفر عن إساءاته نحوي... بالمزيد من اللطف والود والحنان... سبحان الله مقلب القلوب...!

ثورة الأُمّ

الخارطة الكبيرة مفروشه على الطاولة، والدبابيس الصفر والحمر تُعَلِّمُ مواقع الجيش العراقي والإيراني... وأبو مصطفى يصغي إلى المذياع بجانبه أو إلى التلفزيون أمامه... ويحرك الدبابيس حيث تتحرك المعارك... ويستحث ما قبع في ذاكرته من علمي التعبئة والتخطيط، أو ما وعاه عقله من العلوم العسكرية... ويدير المعارك على الخارطة... بالدبابيس الصفر والحمر وهو في مجلسه... ويستنتج... ويستقرئ... يحسب ويتوقع... وهاجسه العسكري... هو سيد الموقف...!

- معركة تحرير "حلبجة" تستغرق بين أسبوع أو عشرة أيام... أبدا لا تزيد عن عشرة أيام... (هكذا قال ونحن على مائدة الفطور...) العلم العسكري هكذا يقول... تجاربي كثيرة... أعرف المنطقة الشمالية شبرا شبرا...

وأم مصطفى تهز رأسها مؤمنة... وأنا كذلك أهزّ رأسي... ما يكاد ينتهي من فطوره حتى يقوم إلى خارطته وإلى جيوشه يحركها بالدبابيس... ويخوض بها المعارك... هذا دَيدنه... هذه لعبته طوال النهار...!

- استريحي أنت يا أم مصطفى... أنا أقوم عنك بشؤون البيت... لم أعد ضيفة... أنا واحدة منكم... كما بنْتكم فاطمة...!

- ولكن هذا لا يجوز... ما ينبغي أن نتْعبك يا ابنتي... نريد أن ترتاحي...

- صدقيني راحتي في العمل... استريحي أنت...!

تقسم أم مصطفى وتقول:

- أنا وأبو مصطفى نُعزّك ونحبّك كما نُعز ونحبّ فاطمة...

ابنتهما فاطمة متزوجة من ضابط يعمل ملحقا عسكريا في السفارة العراقية في "فينّا"...

أنا وأم مصطفى في المطبخ... الموسيقى الحماسية نفسها تنبعث من التلفزيون... خرجنا إلى الصالون...! ماذا...؟ خير إن شاء الله...! يقول أبو مصطفى والخارطة الكبيرة مفروشه أمامه على الطاولة:

- ربما سيذيعون بيانا ما... ولكن المعركة لم تنته بعد... لا يمكن أن تحسم في هذه الأيام الأربعة... لا يمكن... لعل شيئا آخر يريدون أن يذيعوه...!

وأذيع البيان... الريس يزف البشرى إلى الشعب:

- طهّرنا حَلَبْجة من الأعداء... قضينا عليهم قضاء مبرما!..

وبعد ذلك... أناشيد وأغان تمجّد عبقرية الريس... وقيادته الشجاعة...!

ألاحظ عن كثب أبا مصطفى... كأنه إنسان مصدوم... إنسان مصاب بخيبة أمل مريرة:

- لا، أبدا... أربعة أيام لا يمكن... هناك خطأ ما... خلل ما... العلم العسكري يقول: هذه المعركة لا تحسم قبل أسبوع أو عشرة أيام... خطأ

ما قد حدث... العلم العسكري لا يُخطئ... وتوقعاتي لا تخطئ...!

وعلى حين غرة ومن دون توقع تشتعل أم مصطفى ثورة وغضبا:

- اللعنة على العلم العسكري... اللعنة على خارطتك ودبابيسك وتوقعاتك... ما لك يا رجل...! هل جننتَ؟ اتّق الله يا رجل... الناس يموتون أفواجا أفواجا وأنت مشغول بعلمك العسكري وبهواجسك وتوقعاتك... منذ بدأتْ هذه الحرب اللعينة وأنت ذاهل عن الدنيا... ذاهل عن كل شيء إلاّ عن خارطتك ودبابيسك وعلمك العسكري... يكفي هذا... طفح الكيل... روحي كادتْ تزهق... كدتُ أختنق... قتَلَني هذا الرجل بعلمه العسكري وبخارطته ودبابيسه... لا يريد للمعركة أن تنتهي لأنها لم تنته بالشكل الذي رسمه لها علمه العسكري... والذين يموتون لا يعنيه شيء من أمرهم... الذي يعنيه أن تكون توقعاته صائبة، وعلمه العسكري لا يخطئ... إما أنك قد جننت فعلا... أو أنك ستدفع بي إلى الجنون حتما...!

نوع من الهستيريا أصابتها لا شك في ذلك... تصبَّبَتْ عرقا... اختض جسدها... غادر الدم وجنتيها... جف حلقها... أسرعتُ إليها... أتيتها بقدح ماء...

- اهْدإي يا أم مصطفى... اشربي هذا الماء... اهْدئي... "الفاليوم" في جيبي دائما... خذي هذه الحبة...!

صدم أبو مصطفى... صعق... لم يكن يتوقع هذه الثورة من زوجته... لم يتعود منها شيئا من هذا القبيل... لكنه ظل صامتا... لم ينبس ببنت شفة... قام... دخل غرفته وأغلق الباب عليه...!

لم أعرف كيف أتصرف في خضم هذا الغضب الجائح الذي انتاب

أم مصطفى فجأة... عملت على تهدئتها بكل وسعي... أعطيتها قرص "الفاليوم"... لكنها لم تستعد شيئا من هدوئها إلاّ بعد ساعة... طرقت الباب على أبي مصطفى...

- أنا سليمة... يا عمي...

- ادْخلي يا ابنتي...

- لا عليك يا عمي... لا عليك منها، فعلتْ ذلك بدافع الخوف على مصطفى... أرجو ألاّ يتعكر صفو العيش بينكما بالذي حدث... إنها لم تقصد ما قالت... ساعة شيطانية لعينة مضت وانقضت...!!

آتي أم مصطفى...

- هوني عليك... أنا أقدّر مشاعرك... أقدّر مخاوفك... وأبو مصطفى سيقدّر كذلك... قومي إلى فراشك... الساعة قاربت الثانية عشرة ليلا... تعوّذي من الشيطان... قومي إلى فراشك...

قامت بناء على توسلاتي... ودخلت المخدع الذي يؤويهما معا...! صعدتُ إلى غرفتي... أستعرض ما حدث... شيء غريب غاية في الغرابة... أم مصطفى امرأة ساكنة هادئة سلسة... مطيعة ربما إلى درجة الخنوع... كل شيء يمكن أن يتوقع منها إلاّ هذا الغضب الجائح الذي كاد يزلزل أركان هذا البيت... شيء عجيب حقا... ما أعجب الإنسان... في الوقت الذي نظن أننا عرفناه إذا بنا نكتشف أننا لم نكن نعرفه... الإنسان حقيقة عالم غريب معقد... لا يستطيع أحد سبر أغواره إلاّ الذي خلقه...!! عمق الليل... ومع العمق يأتي السكون دائما... ويأتي الصمت الثقيل والمخيف كذلك...

تناولتُ قرص المنوم... اطمأننتُ على محمد... انسللتُ إلى فراشي... وقبل أن يأخذني هذا القرص إلى النوم سمعتُ وكأن جرس الباب يرنّ... أصغيتُ... مرة أخرى يرنّ... قمتُ من الفراش أصختُ السمع... مرة ثالثة يرنّ... نظرت إلى الساعة... الساعة الثانية والنصف... نزلت إلى الصالون... أشعلتُ المصباح... اقتربتُ من الباب الخارجي.

- مَن...؟

- أنا مصطفى... افتحي يا امرأة عمي...!

- فتحت أهلا مصطفى...

دلفنا إلى الصالون معا...

- حمدًا لله على سلامتك...

أنظره جيدا على ضوء المصباح... كفه مشدودة بشداد أبيض... تند عني صرخة فزع...

- ما لها كفك يا مصطفى...

- لا تفزعي يا امرأة عمي... شيء بسيط... طلقة أصابتها... تولى مستشفى الميدان إخراجها... أعطوني عشرة أيام استراحة...!

بهدوء أطرق الباب على الوالدين... صوت أم مصطفى أولا...

- نعم...؟

- أنا سليمة... أبشركما... أبشركما... (كررت الكلمة مرتين كي لا يفزعا...) مصطفى هنا وهو بخير...

خرجا... أخذاه بالأحضان... قبّلاه...

- الحمد لله على سلامتك يا بني... ما لكفك...

- لا شيء أبدا جرح خفيف... وأنتما كيف حالكما... (يلحظني...) أقصد كيف حالكم جميعا... وكيف محمد...؟!

- نجلس في الصالون... طار النوم... حدّثْنا كيف سارت أمور المعركة... وكيف انتهت بهذه السرعة... كنت أتوقع لها أسبوعا أو عشرة أيام...

تنظر الأم إلى زوجها باستهجان... وكأنها توبّخه أو تقول له: "لا تستطيع أن تتخلى عن عادتك أبدا"...

- حساباتك صحيحة يا أبي... (ينتفخ والده قليلا... كان يبدو على مصطفى أنه يساير أباه أو يجامله أكثر من كونه مصدقا لتوقعاته).. إلاّ أن الجماعة استخدموا في هذه المعركة شيئا رهيبا لم يكن داخلا في حساباتك...!

- باستغراب شديد...

- ما هو يا مصطفى؟!!

- لا أدري... (وبصوت يشبه الهمس) يقولون: إنه غاز سام خطير قتل في دقائق الآلاف جعل الإيرانيين يفرون مذعورين... الألوف من الأكراد سقطوا موتى في دقائق... وانتهت المعركة على هذا الشكل حتى يقال إن الخميني نفسه سيعلن موافقته على قرار مجلس الأمن في إيقاف القتال خلال الساعات القريبة القادمة لتأكده بأنه لا جدوى من الحرب أمام هذا السلاح الرهيب...!

بيان البيانات

رجع الصفاء إلى سابق عهده بين أبوي مصطفى... سررتُ بذلك كثيرا... بدا ذلك عليها ونحن على مائدة الفطور في الصباح الباكر... لم ألمس صدودا من أم مصطفى تجاه زوجها... ولم أحسّ عزوفا منه عن مبادلتها الحديث...!

الأَجَنْدة على الحائط أمامنا تشير إلى أنه اليوم الثامن من آب لسنة ١٩٨٨... المارش العسكري المعتاد ينبعث من المذياع... والمذيع: بعد قليل سنذيع عليكم "بيان البيانات"... وبيان البيانات كما يقول مصطفى: إنه البيان الذي سيزف إلينا بشرى وقْف إطلاق النار... أوشكت الحرب أن تضع أوزارها...!

أم مصطفى:

- إن شاء الله... إن شاء الله... يكفينا... جفّت دماؤنا... لم يعد لدينا مزيد من الدماء لنعطيها... ثمان من السنين العجاف... أكل أخضرها يابسها... وغثّها سمينها... سنين ولا كسني يوسف عليه السلام...!

صمت ولا تعليق من قبل أبي مصطفى... انتهينا من طعام الفطور... انتقلنا إلى الصالون... محمد يبدو في غاية الانشراح... تتبادله الأيدي والأحضان...!

- هل منكم من أحد يرغب بقدح جديد من الشاي...؟

قال مصطفى:

- أنا يا أم محمد...!

ملأت القدح... جئت به إليه... صببت لي قدحا جديدا... وحدي أنا في المطبخ... ولأبي محمد قدحا آخر... هاهو يجلس على الطاولة أمامي... يبتسم... يتودد إليّ...

- خذ قدحك أبا محمد... ترشفه إنه مازال ساخنا كما تحب...

أغيب عن العالم... لا أرى أحدا... لا أسمع أحدا... وحده أراه... وحده أسمعه...! وفجأة وكأني أقذف بقوة من علو شاهق على صوت أم مصطفى:

- أين أنت يا أم محمد... تعالي اسمعي البيان...! كم لبثت في هذا الفناء المستطاب...؟ لا أدري...!

أذيع البيان... موجة فرح غامرة غشيتنا جميعا إلاّ أبا مصطفى...! أبو مصطفى يقوم إلى خارطته المتهرئة ودبابيسه الصفر والحمر... يلف الخارطة... ويضع الدبابيس في علبتها ولسان حاله يقول:

- انتهت اللعبة...!

أقول في نفسي:

- احتفظ يا سيدي بخارطتك، فلربما ستحتاجها في حرب أخرى قادمة... وهي آتية لا محال...!

الفهرس

المقدمة ٥
صراخ الطفل ٧
الشهيد ٩
حميدة ١١
شبح امرأة ١٣
الدرويش ١٦
لا أنام..... ١٩
أثرياء الحروب ٢١
الجيش الشيطاني ٢٤
التكشيرة الصفراء..... ٢٧
الذئب...!..... ٣١
السجينة..... ٣٥
أبو خالد ٣٧
حطام امرأة ٤١
روح مسحوقة ٤٥
الاغتصاب..... ٤٧

مشاغل الناس ٥٠
مُدنَّسة الجسد ٥٤
الآتي الأعظم ٥٧
الرمز والإشارة ٦٠
دَوَّامةُ الجنون ٦٣
جاء الأعظم ٦٦
أم خالد ٦٩
الانتحار ٧١
النجاة من الغرق ٧٣
البطلة ٧٦
التكريم ٧٩
الآتي من بعيد ٨١
بداية النهاية ٨٤
نزهة على ضفاف النهر ٨٨
في جامع النبي يونس عليه السلام ٩١
تحرير حلبجة ٩٤
ثورة الأُمّ ٩٨
بيان البيانات ١٠٤
الفهرس ١٠٧